الفصل الثالث

إثبات النبوة

المعجزات .. معجزة القرآن الكريم

- طبيعة العلم بأصل النبوات .
- المعجزات دليل إثبات النبوة .
- معجزة القرآن الكريم .
- وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم :
  - ❊ الإعجاز اللغوى والبلاغى .
  - ❊ الإخبار بالغيوب .
  - ❊ مضمون الرسالة .

obeikandl.com

obeikandl.com

إثبات النبوة

المعجزات .. معجزة القرآن الكريم

● **مقـــدمة :**

الرسول يأتى مبلِّغاً عن الله عن طريق الوحى أوامره ونواهيه إلى الخلق ، ولا بد من أن يكون مع الرسول دليل صدقه ، وأنه صادق فيما يقول أنه مبلِّغ عن الله وأنه يأتيه الوحى بذلك .

وفى هذا الفصل سنعرض لطرق إثبات النبوة ، ونبدأ بعرض طبيعة الأدلة التى توصل إلى معرفة صدق الرسل ، فهل هى اضطرارية أم اختيارية ، ثم نعرض بإيجاز للخبر كطريق لمعرفة النبوة .

ثم نعرض للمعجزة باعتبارها الدليل الذى يقدمه الرسول على صدقه ، ونعرض لتعريفها وأنواعها ، ثم تفصيل القول فى القرآن الكريم كمعجزة للنبى محمد عليه السلام .

ونعرض خلال ذلك للفرق بين المعجزة والكرامة ، والتى قد تشابهها من وجه لكن تختلف عنها من أوجه عديدة ، كذلك الفرق بين المعجزة والسحر وهو فرق جوهرى .

وسوف نعرض فيما يلى لذلك كله وغيره من الأمور المتعلقة بدلائل إثبات النبوة .

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

أولاً : طبيعة العلم بأصل النبوات

نقصد بذلك المبحث « طبيعة العلم بأصل النبوات » أى أن نحدد طبيعة العلم بصدق النبوة ، هل هو علم اضطرارى أم اكتسابى ؟

علينا أن نشير قبل الإجابة عن ذلك إلى معنى العلم الاضطرارى والاكتسابى .

العلم الاضطرارى ، هو ما أُدرك ببداهة العقول ، وهو نوعان : حس ظاهر ، وخبر متواتر .

وعلم الحس متأخر عن العقل ، وعلم الخبر : متقدم عليه ، ولا يفتقر علم الاضطرار إلى نظر واستدلال لإدراكه ببديهة العقل ، ويشترك فيه الخاصة والعامة ولا يتوجه إليه مجد ، ولا تحسن المطالبة فيه بدليل ، لأنه غاية لتناهى النظر .

وأما علم الاكتساب فطريقه النظر والاستدلال ، لأنه غير مدرَك ببديهة العقل ، فصح أن يتوجه إليه الاعتراض فيه بطلب الدليل عليه ، فلذلك لم يتوصل إليه إلا بالنظر والاستدلال ، وهو على ضربين :

أحدهما : ما كان من قضايا العقول .

والثانى : ما كان من أحكام السمع .

فأما قضايا العقول فضربان :

أحدهما : ما عُلِم استدلالاً بضرورة العقل .

والثانى : ما عُلِم استدلالاً بدليل العقل .

فأما المعلوم بضرورة العقل : فهو ما لا يجوز أن يكون على خلاف ما هو به ، كالتوحيد ، فيوجب العلم الضرورى ، وإن كان عن استدلال للوصول إليه بضرورة العقل .

وأما المعلوم بدليل العقل : فهو ما يجوز أن يكون على خلاف ما هو به كآحاد

الأنبياء إذا ادَّعى النبوة ، فيوجب علم الاستدلال ، ولا يوجب علم الاضطرار ، لحدوثه عن دليل العقل لا عن ضرورته [١] .

فالعلم إذن منه ما هو اضطرارى يحدث بالنظرة العقلية المباشرة لدى الناس جميعاً على تفاوت مداركهم بمجرد النظر ، وذلك كمعرفة العقول لحسن الأشياء جملة لا على سبيل التفصيل ، وأيضاً كالمعرفة الحسية وهى صادقة بالضرورة .

ومنه ما هو كسبى - أى يقوم على الاستدلال - وهو فى المعارف التى تبعد عن الضرورة والحس .

ولسنا نخوض فى تفاصيل هل العلوم كلها ضرورية أم استدلالية ، أم أن منها ما هو ضرورى وما هو استدلالى ؟

ويكفى مجرد الإشارة إلى أن بعض الروافض ذهبوا إلى أن المعارف كلها ضرورية ، إلا أن الله لا يفعلها فى العبد إلا بعد النظر والاستدلال .

وذهب الجاحظ وثمامة إلى أن المعارف ضرورية [٢] .

وذهب الرازى - من الأشاعرة - إلى أن العلوم كلها ضرورية لأنها إما ضرورية ابتداءً أو لازمة فيها لزوماً ضرورياً [٣] .

لكن ذهب الكثيرون - من المتكلمين وغيرهم - إلى أن المعارف ليست كلها ضرورية ، فليس كل علم ضرورياً ، إذ أن ذلك خلاف ما يجده كل عاقل من نفسه فى المسائل المختلف فيها كحدوث العالم ووجود الصانع والجوهر الفرد وبقاء الأعراض وغير ذلك ، ثم لو كانت العلوم كلها ضرورية لما ساغ الخلاف بينها[٤] .

والذى يهمنا فى هذا الموضع هو هل العلم بالنبوات ضرورى أم اكتسابى ؟

يذكر الماتريدى أن معرفة النبوات ليست اضطرارية بل اكتسابية ، فالعقل هو سبيل معرفة حُجَّة الرسل ، والتمييز بينها ، وبين تمويهات السَّحَرة ، ويرى أن

---

(١) الماوردى : أعلام النبوة ص ٥٠

(٢) البغدادى : أصول الدين ص ٣١ ، والقاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة .

(٣) الرازى : محصل أفكار المتقدمين ص ٧١ (٤) الآمدى : أبكار الأفكار ص ٣

حُجَج الرسل اختيارية وليست اضطرارية ، لأنها لو جُعلت اضطرارية لارتفعت المحنة ، فجُعلت حُجَجهم من وجه يقع بها الشبه ليتوصل إلى معرفتها بالفكر لئلا ترتفع المحنة [١] .

وعلى هذا فالعلم بالنبوات اكتسابى ويُعرف بالعقل ، لكن هل يعلم بضرورة العقل أم بدليل العقل ؟

يجيب الماوردى عن ذلك فيقول : « واختلف فى أصل النبوات على العموم ، هل يعلم بضرورة العقل ؟ أو بدليله ؟ على اختلافهم فى التعبد بالشرائع ، هل اقترن بالعقل أو بعضه .

فذهب مَن جعله مقترناً بالعقل إلى : إثبات عموم النبوات بضرورة العقل .

وذهب مَن جعله متأخراً عن العقل ، إلى إثباتها بدليل العقل [٢] .

ولقد ذهب ابن تيمية إلى أن دلالة المعجزات وهى آيات الأنبياء على نبوتهم تُعرف بالضرورة والاستدلال [٣] .

ويبدو أن الأقرب إلى الصواب هو القول بأن طريق العلم بالنبوة هو بدليل العقل لا بضرورته ، وذلك لأن المعلوم بدليل هو الذى يحتمل الخلاف ، ولقد وقع خلاف بإزاء النبوة فأنكرها البعض مثل البراهمة ، كذلك كذَّب بعض القوم الرسول الذى أرسل إليهم ، أى أنها تحتمل الخلاف وقد حدث بالفعل ، أما العلم بضرورة العقل فلا يجوز الخلاف فيه .

وعلى هذا فسبيل معرفة إثبات النبوة هو النظر فى أدلة الرسل وما يقدِّمونه دليلاً على صدق رسالتهم .

وعلينا أن نعرض لأدلة الرسل وطرق إثبات النبوات . ويقف على رأس هذه الأدلة المعجزات التى جاءت على أيدى الرسل ، وسوف نعرض لها فيما يلى . .

❊ ❊ ❊

---

(١) الماوردى : أعلام النبوة ص ٥ ، ٦ (٢) المرجع السابق .

(٣) ابن تيمية : النبوات ص ٣٣٨

ثانياً : المعجزات دليل إثبات النبوة

سوف نحاول فيما يلى أن نلقى الضوء بإيجاز على المعجزات ، وهى تمثل الدليل على صدق الرسل .

ونشير فى إيجاز إلى معنى المعجزة ، والفرق بينها وبين الكرامة والحيل والسحر ، ثم نعرض إلى أنواعها ، من معجزات حسية ومعجزات عقلية ، وسوف نهتم بصفة خاصة بمعجزات القرآن الكريم ، ونعرض لها بالتفصيل .

١ - معنى المعجزة :

المقصود بالمعجزة ما قُصِد به إظهار صدق مَن ادَّعى أنه رسول الله .

والمعجزة فى اللُّغة مأخوذة عن العجز الذى هو نقيض القدرة ، والمعجز فى الحقيقة هو فاعل العجز فى غيره ، وهو الله تعالى ، فهو الذى ينفرد بالقدرة عليه ، ولا يصح دخوله تحت قدرة الخلق .

ويرى بعض الأشعرية وجمهور المعتزلة أن المعجز على ضربين :

ضرب ينفرد به الله تعالى ، ولا يدخل تحت قدرة العباد مثل اختراع الأجسام .

وضرب يدخل مثله تحت قدرة العباد ، ولكن يمتنع عليهم أن يأتوا به على مثل ما يقع من الله ، مثل بلاغة القرآن الكريم ، فهم يقدرون على اليسير من البلاغة ، وإن تعذر عليهم الكثير من تجانس قليله وكثيره .

والمعجزة خاصة بدار التكليف لأن ما يظهره الله تعالى فى الآخرة من الأمور الخارجة عن العادة ليست بمعجزة [١] .

---

(١) الباقلانى : البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل ص ٨ - ١٤ ، البغدادى : أصول الدين ص ١٧٠ - ١٧١ ، القاضى عبد الجبار ، المغنى : ٥/١٩٧ - ١٩٩ ، الأيجى : المواقف ص ٥٤٧ ، أبو المعين النسفى : تبصرة الأدلة (مخطوط) ص ٢٨٤ .

والمعجزة - عند المتكلمين - تقع بقُدرة الله على يدى النبى للتحدى بها بإذن الله ، ودلالتها على الصدق قطعية ، ولقد ذكر الماتريدى أن المعجزة آية صدق الأنبياء ، وهى تخرج على خلاف الأمر المعتاد بين الناس ، ويجريها الله تعالى على أيدى مَن أرسلهم ، وهى من فعل الله تعالى (١) .

ولقد دافع الفارابى - من الفلاسفة الإسلاميين - عن المعجزات التى يأتى بها الأنبياء ، فيقول : « النبوة مختصة فى روحها بقوة قدسية تذعن لها غريزة عالَم الخلق الأكبر ، كما تذعن لروحك غريزة عالَم الخلق الأصغر ، فتأتى بمعجزات خارجة عن الحيلة والعادات ولا تصدأ مرآتها ولا يمنعها شىء عن انتقاش ما فى اللوح المحفوظ من الكتاب الذى لا يبطل ، وذوات الملائكة التى هى الرسل ، فتبلغ مما عند الله عند عامة الخلق » (٢) .

ولقد ذكر الرازى طريقة الفلاسفة فى كيفية ظهور المعجزات على الأنبياء عليهم السلام ، فالإنسان له قوتان : قوة نظرية ، ترتسم فيها صور المعقولات من عالم المفارقات ، وقوة علمية ، يقدر بها على التصرف فى عالَم الجسمانيات .

فالمعجزة الصادرة من القوة العاقلة الشاعرة ، كونه آتياً بالأخبار عن المغيبات .

والمعجزة الصادرة من القوة العملية ، كونه آتياً بالأفعال الغريبة الخارقة للعادة ، والقوة الوهمية التى للإنسان ، قد تكون قادرة على التأثير فى الأجسام ، ولا يمتنع وجود إنسان تكون نفسه كاملة فى هذه القوة ، فيقدر على التصرف فى هيولى هذا العالم كيف شاء وأراد (٣) .

ولقد ذكر ابن خلدون أن المعجزة عند الفلاسفة هى من فعل النبى ، بناء على مذهبهم فى الإيجاب الذاتى ، وهى تقع للنبى سواء أكان للتحدى أو لم يكن ، ودلالتها على الصدق ليست قطعية (٤) .

---

(١) الماتريدى : تأويلات أهل السُّنَّة : ١/٥٢٥ (٢) الفارابى : فصوص الحكم ص ٧٢

(٣) الرازى : النبوات وما يتعلق بها ص ١٩٤ - ٢٠٤ (٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٦ - ٨٨

والمتأمل لكلام ابن خلدون عن الفلاسفة ، يجد أنه يربط بين موقفهم فى العلاقة بين الأسباب والمسببات - وأنها علاقة ضرورية - وبين المعجزة ، لذلك ينسبون فعلها للنبى حيث يُعَد الفاعل المباشر للفعل ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اتصال النبى بالعقل الفعَّال ، وهو العقل المدبِّر لعالَم الكون والفساد ، مما يجعل النبى قادراً على الفعل والتأثير فى هذا العالَم ، لأن الاتصال يعنى أن يكون له ما للعقل الفعَّال من تدبير عالم الكون والفساد .

ويفضِّل ابن تيمية بأن تسمى المعجزة آيات وبراهين ، إذ أن شرط المعجزة أن تكون خارقة للعادة ، فإن هناك اضطراب فى معنى العادة وانخراقها ، فإن كل قوم يفهمون غير ما يفهمه الآخرون ، والله تعالى إنما سماها آيات [1] .

ويرى أن من خصائص معجزات الأنبياء أنه لا يمكن معارضتها ، فإذا عجز البَشر عن معارضتها كانت أعظم دليل على اختصاصها بالأنبياء [2] .

وعلى كل ، فإن المعجزة ليست أمراً معتاداً للناس ، ولعل هذا ما جعلها عند البعض تلتبس بالكرامة ، وأحياناً بالحيل ، لذا نعرض لمعناهما والفرق بينهما وبين المعجزة .

* *

٢ - الكرامة

تتساوى الكرامة والمعجزة فى نقض العادة ، والفرق بينهما أن المعجزة تظهر على يد النبى ، والكرامة تظهر على يد الولى ، والمعجزة لا يكتمها صاحبها بل يظهرها ويتحدى بها ، أما الكرامة فإن صاحبها يكتمها بل ويجتهد فى كتمانها .

ويرى ابن تيمية أن ذلك من الفروق الضعيفة بين المعجزة والكرامة ، ويورد أمثلة لإظهار الكرامة والتحدى بها [3] .

---

(١) ابن تيمية : النبوات ص ٢٨٩ (٢) ابن تيمية : النبوات ص ٣٥ .

(٣) ابن تيمية : النبوات ص ٨

ويرى أن ما تمتاز به المعجزة عن غيرها من خوارق العادات هو أنها مقترنة بدعوى النبوة [١] .

والمعجزة مأمون تبدل صاحبها لأنه معصوم عن الكفر والمعصية بعد ظهور المعجزة عليه ، وصاحب الكرامة لا يؤمن من تبدل حاله [٢] .

ولقد أجاز الأشاعرة - فيما عدا الإسفراينى - وقوع الكرامة ، واستدلوا بما ورد فى الخبر عن صاحب سليمان بإتيانه بعرش بلقيس ، ورؤية عمر رضى الله عنه وهو على منبرة جيشه بنهاوند [٣] .

وأيضاً قد أجازها الماتريدية [٤] .

وأيضاً أجازها الصوفية الذين دافعوا عنها ضد منكريها ، وذكروا أنها لا تشتبه بالمعجزة ، وأنها تأييد للنبى وإظهار لدعوته ، وهى تحدث للأولياء من حيث لا يعلمون [٥] .

أما المعتزلة . . فلقد أنكروا الكرامة للأولياء ، وقالوا : إنها تشتبه بالمعجزة ولا خلاف بينهما إلا فى اللفظ ، والمعجزات لا تكون إلا للأنبياء ، وكذلك الكرامة [٦] .

❊ ❊

٣ - الحيل « السحر »

تتم فيما يمكن دخوله تحت مقدور العباد ، والسحر يقوم على التخيل والتمثيل بالآلات ، ولقد أورد الرازى حوالى عشرة أنواع من السحر .

---

(١) ابن تيمية : النبوات ص ٤٧

(٢) البغدادى : أصول الدين ص ١٧٤ - ١٧٥ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٨٧ ، ٨٨

(٣) البغدادى : أصول الدين ص ١٨٤ - ١٨٥ ، الرازى : محصل أفكار المتقدمين ص ١٦١ ، وابن خلدون : المقدمة ص ٨٦

(٤) أبو المعين النسفى : التمهيد فى أصول الدين ص ١٤

(٥) الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٧٢ - ٧٤

(٦) القاضى عبد الجبار : المغنى : ١٥/٢٤٢ - ٢٤٣

وما يفعله الساحر ضرب من الحيلة والسخف ، مثل الحيات وغيرها من الحيوان فتبدو وكأنها تسعى .

وهناك ضرب آخر من السحر هو الذى ورد فى القرآن وتواترت به الآثار ولقد اختلف فيه ، فمنهم مَن رآه سحر حقيقة ، وضارٌ بالمسحور وإن لم يضر إلا بإذن الله ، ولقد نهى القرآن عنه ، وعند الإمام مالك وأصحابه : يُقتل عامله ولا يُستتاب [1] .

ولقد رأى البعض أن القرآن الكريم ينفى تأثير السحر ، وبيَّن أن السحر لا حقيقة له ولا فائدة منه ، ولا يصح لإنسان أن يعتقد أنّ له تأثيراً فى النفع أو فى الضرر .

ولقد فنَّد القرآن دعاوى بعض اليهود وهى :

١ - أنَّ سليمان نبى الله قد كفر .

٢ - أنَّ الله أنزل وحى السحر على هاروت وماروت وأمرهما أن ينزلا إلى الأرض على علماء اليهود ليعلِّما منهم مَن أراد السحر .

٣ - أن هاروت وماروت علَّما البعض ولم يُعلِّما الكل .

٤ - أن علماء اليهود الذين تعلموا من المَلَكين هاروت وماروت ، والذين تعنَّموا فيما بعد من المشايخ يستطيعون أن يضروا مَن أرادوا له ضرراً بواسطة السحر .

والله تعالى قد كذَّب الدعاوى ونفاها ، فقد بيَّن بوضوح ما يلى :

أولاً - قال تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ [2] ، و« ما » نافية ، أى من ادعاء العلماء الشياطين من اليهود بأن سليمان كان كافراً ، ادعاء منفى بـ « ما » النافية ولأن الجزاء من جنس العمل ، ألصق الله تعالى بهم الكفر الذى ادَّعوه كذباً على سليمان عليه السلام ، ووضح أنهم مستمرون فى تعليم السحر للناس بواسطة الكتب التى يؤلفونها وينشرونها .

---

(١) الباقلانى : البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل ص ٥٧ - ٥٨ -٧٧ - ٧٨

(٢) البقرة : ١٠٢ .

ثانياً - وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ (١) ، أى أن الله تعالى - بـ « ما » النافية - نفى نزول هاروت وماروت فى مدينة بابل، يريد أن يقول : ما أنزلتُ من شىء على اثنين من الملائكة .

ثالثاً - ادَّعى العلماء الشياطين من اليهود بأن هاروت وماروت :

١ - علَّما البعض .

٢ - وقالا لمريد التعلم : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ (٢) .

٣ - وأن البعض - الذى تعلم - قد تعلَّم من المَلَكين ما يُفرِّق بين المرء وزوجه .

وقد نفى الله تعالى هذه الدعاوى ، بـ « ما » النافية ، وعطف النفى على ما قبله فقال : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ (٣) .

لقد نفى القرآن الكريم تعليم المَلَكين لأى أحد بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ ، وكل ما يترتب على دعوى أن لَمَلَكين علَّما ، فهو يُنفَى بنفى أن المَلَكين علَّما ، ومثل هذا التعبير - ولله المثل الأعلى - مثل قولك لصاحبك : « ما دخلتُ مكة ، حتى تقول إننى رأيت الكعبة ، فتطلب منى أن أصفها لك » ، فإن نفى الدخول هو نفى للرؤية ، وهو نفى للوصف ، أى أن صاحبك لا يحق له أن يطلب منك وصف الكعبة ، لأنك لم تر الكعبة ، وأنت لم تر الكعبة لأنك لم تدخل مكة .

رابعاً : ادَّعى العلماء الشياطين من اليهود أنهم يقدرون على الضرر بواسطة السحر ، فرد الله هذه الدعوى بقوله : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (٤) ، لقد نفى أنهم قادرون على الضرر بواسطة السحر ، لكن قد يحصل

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) البقرة : ١٠٢

لإنسان وهم بأنهم يقدرون على ضرره ، والوهم يضر الإنسان ويشوِّش عليه خواطره .

ومن أجل ذلك بيَّن أن ما يحدث من ضرر ، فإنه من الله نفسه ، وقد ساق إليه الوهم ليتضرر الإنسان بالوهم لسوء فعله ، وهذا المعنى مثل المعنى من قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (١) ، أى أنَّ مَن كانت نيَّته إلى الخير ، ييسر الله له كل سبل الخير ، والخير والشر فى العالم لا يحدثان إلا بإذن الله .

وعلى هذا التفسير يتبين أن الله تعالى قد رد كيد اليهود إلى نحورهم ، ونفى ما ادَّعوه وأشاعوه من تأثير للسحر ، وأثبت أن السحر لا حقيقة له ولا تأثير له (٢) .

أما الحديث المبيِّن أن النبى ﷺ قد سحره يهودى ، فليس حديثاً مفسِّراً لآيات من القرآن ، وإنما هو من الأحاديث الصحيحة عند قوم ، وغير الصحيحة عند آخرين، والأليق لمقام النبوة ، أن نحكم عليه بالكذب ، لأن العلماء إذا اضطرب رأيهم فى أمر فيه شبهة ، وجب حسم الاضطراب ناحية الأصلح والأخلق (٣) .

---

(١) التغابن : ١١

(٢) انظر مقدمة الدكتور أحمد حجازى السقا لتحقيق كتاب « النبوة » للرازى من ص ٤٧ - ٦٤ ، ولقد أوجزنا ما أورده للدلالة على أن السحر هو مجرد وهم وتخيل وأنه لا أثر له ، ولا يجوز الاحتجاج بالقرآن أو السُّنَّة على حقيقة وجوده .

وانظر أيضاً الأشعرى ، مقالات الإسلاميين : ٢/١٢٩ ، حيث أورد الاختلاف فى معنى السحر ومداه ، ومما أورده قول البعض بأن السحر ليس على قلب الأعيان ، ولكنه أخذ بالعيون ، كنحو ما يفعله الإنسان مما يتوهمه المتوهم على خلاف حقيقته ، أى أنه مجرد وهم .

(٣) فرصوص يوسف : القرآن والعلم يفضحان السحر ص ٧١ - ٧٨ ، حيث عرض بالتفصيل لمسألة سحر النبى ﷺ ، واعتمد على كتاب الدكتور السيد الجميلى « سحر النبى ﷺ بين المؤيدين والمشككين » ، ولقد تردد المؤلف بين المؤيدين والمتشككين ، وانتهى إلى التوفيق بين الموقفين بأن السحر لم يقع على الجانب العقلى ، بل وقع على الجانب الجسمى .

ولقد أيَّد الأستاذ فرصوص يوسف رأى المنكرين لسحر النبى عليه السلام لأن هذا لا يليق بمقام النبوة واستحسن رأى الإمام محمد عبده فى ذلك ..

ولقد ذهب الإمام محمد عبده فى تفسيره إلى نفى سحر النبى عليه السلام ، وأن يهودياً قد سحره ، وبيَّن أن هذا الحديث موضوع ولا يليق بمقام النبوة .

وهكذا يتبين لنا من ذلك الموقف نفى القرآن الكريم للسحر ، ولقد قدَّم أصحاب هذا الموقف حُجَّتهم فى ذلك ، ولقد أوردنا موقفهم بشىء من التفصيل ، ويبدو لنا صحة هذا الموقف إلى حد بعيد ، وعلى كل فإن الثابت والمتفق عليه هو النهى عن السحر ، ولقد سبقت الإشارة إلى الحكم على الساحر الذى يأتى السحر .

وهناك دراسات علمية فى طبيعة الإدراك وأخطائه تبيِّن أن السحر ليس له وجود حقيقى ، بل هو خطأ فى الإدراك ، فلقد ذكر أصحاب المدرسة « الجشتالطية » فى علم النفس - أن هناك عناصر أساسية تتدخل فى كل عملية إدراكية سواء عن طريق سمعى أو بصرى أو لمسى أو شمِّى أو غير ذلك ، ولقد قسمت المدرسة « الجشتالطية » العوامل التى تؤثر فى الإدراك إلى مجموعتين هما : العوامل الموضوعية ، والعوامل الذاتية ، ولهذه العوامل أثرها على الإدراك الخاطىء ، وذلك لأن كل مثير بسيط أو مركَّب يمكن تحليله إلى العناصر المكوِّنة له ، الموضوعية : مثل عامل القرب والتكامل والسرعة والاستمرارية ، والذاتية : مثل عامل التوقع والعوامل النفسية والجسمية .

وكثير من السَحَرة والمشعوذين يطبقون هذه القوانين فى تنفيذ خططهم وتحويل أنظار الحاضرين إلى أشياء ومواقف مزيفة يستعصى عليهم إدراكها على حقيقتها نظراً إلى أن العوامل تكون فيها متداخلة ، فالعوامل الذاتية وهى انتظار ما يقدمه الساحر واعتباره معجزة خارقة للعادة وإكباره فى عينه ، كل ذلك أحكام مسبقة تعينه على تقديم عمله ، وكذلك أيضاً العوامل الموضوعية [1] .

ويفرِّق الماتريدى بين المعجزة والسحر ، ومن ثَمَّ بين النبى والساحر فيقول : بأن السحر اكتساب ، أما المعجزة فليس طريقها التعلم ، بل هى مَنَّة من الله وفضل على نبيه .

---

(١) فرصوص يوسف : القرآن والعلم يفضحان السحر ص ٣٨ - ٤٨

ثم إنَّ المعجزة مختصة لأمر عظيم ومصحوبة بتعاليم وشرائع ، أما السحر فهو شيء يأخذ البصر ثم يضمحل .

ثم إنَّ المعجزة وهى آية الرسول تمنع أن يدَّعيها مَن ليس برسول ، وأيضاً إن الساحر يحمل معه دليل كذبه ، إذ أنه تكلَّف استخراج العجائب بالتعلم ، فلو كان ما يفعلونه حقاً لكان به غنىً عن عَرَض الدنيا .

وأيضاً إن الرسل قد دعوا إلى الكف عن الملذَّات والشهوات ، وخاطروا بأنفسهم فى وقت ضعفهم وقِلَّة أنصارهم ، وتعرَّضوا للجبارين مع علمهم بما يضمره لهم هؤلاء ، وما هم عليه من قوة ، لكن ذلك كله لم يثن الرسل عن عزمهم وإبلاغ دعوتهم والتضحية فى سبيلها [1] .

هكذا تفترق المعجزة عن السحر ، من حيث طبيعتها وأهدافها وغايتها ، وأنها دليل على صدق الرسل وإثبات الرسالة ، وأن المقصود بها التحدى لإثبات صدق الأنبياء ، وأنها تجرى على أيدى مَن اختصوا بالعصمة ، ويجب على الخلق طاعتهم فى كل ما يأمرون به ، والإيمان بجميع ما يخبرون عنه ، وكل ذلك لا ينطبق على السحر ولا على السَحَرة [2] .

❊ ❊

٤ – طرق العلم بالمعجزات

طريق العلم بالمعجزات هو الخبر ، والعقل ، وسوف نتناول طريق الخبر بشيء من التفصيل ، أما طريق العقل ، فهو الذى يتوقف عليه صحة الخبر وصدقه ، ولقد أشرنا إليه فيما يخص العلم بأصل النبوات ، ونشير إليه بإيجاز فى هذا الموضع فيما يخص المعجزات .

---

(١) الماتريدى : التوحيد ص ١٨٩ ، ملا على القارى : شرح الفقه الأكبر ص ١٤٥

(٢) أبو الحسن الديار بكرى : تاريخ الجنس : ١٦/١ ، ابن تيمية : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٣٣ – ٣٧ ، وأيضاً ابن تيمية : النبوات ص ١٨٨

(أ) الأخبار « الخبر المتواتر » :

الأخبار هى المعرفة التى تأتى عن طريق الأخبار التى يتناقلها الناس فيما بينهم ، وهناك الأخبار المتواترة التى يتناقلها الناس عن البلدان والممالك الماضية ، والعلم بما غاب عنهم من أشياء ولم يعاينوها وبها يكون معاشهم ، وكالعلم بالأسماء والأنساب ، وكل ذلك يصل إليه بالخبر ، ومنكر هذا الخبر كمنكر العيان ، أى أن صدق هذا الخبر ضرورى (١) .

وهناك نوع ثان من الأخبار - وهو الذى يهمنا فى هذا الموضع - وهى الأخبار التى تأتى عن طريق الرسل ، ويلزم قبولها بضرورة العقل ، إذ لا خبر أظهر صدقاً من خبرهم بما معهم من الآيات الموضحة لصدقهم ، إذ لا يوجد خبر يطمئن إليه القلب وأوضح صدقاً من أخبار الرسل (٢) .

والخبر الذى يصلنا عن طريق الرسل نوعان : خبر متواتر ، وخبر آحاد .

والمعجزات التى وصلت إلينا فى الأكثر والأعم أنها وصلت عن طريق الخبر المتواتر .

والخبر المتواتر هو الذى يرويه قوم لا يُحصَى عددهم ، ولا يُتوَهم تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم وتباين أماكنهم .

ولقد وضع منهج نقدى للتأكد من صحة الخبر المتواتر والثقة به ، ومن هذه الضوابط التى وضعت للتأكد من صحته :

النظر فى أحوال الرواة ، لأنه يحتمل أن يقع منهم الغلط أو الكذب ، إذ ليس معهم دليل الصدق ولا برهان العصمة ، فحق مثله النظر فيه ، والتأكد من أحوال الرواة للخبر ، إذ أنهم ليس لديهم العصمة ، فلا بد من ثبوت عدالتهم وعدم كذبهم ، ثم التدرج فى سلسلة الرواة حتى نصل إلى الرسول الذى بلَّغوا عنه وهو معصوم (٣) .

---

(١) القاضى عبد الجبار ، المغنى : ١٥/٣٤٩ (٢) الماتريدى ، التوحيد ص ٨

(٣) المصدر السابق ، ص ٩

وعلى هذا فالمعجزات التى حدثت على أيدى الرسل تصل إلينا عن طريق الذين شاهدوها وعاصروها ، ونقلوها إلينا عبر سلسلة من الرواة تأكدنا من عدالتهم وصدقهم وعدم كذبهم ، أى تحرينا الدقة والموضوعية والتزمنا بالمنهج النقدى للتأكد من صحة الأخبار التى تتناول المعجزات والتى نقلوها إلينا .

❊

(ب) العقل :

أما دور العقل فى العلم بالمعجزات ، فهو - كما سبق أن أشرنا - أن صحة الخبر المتواتر تتوقف على عمل العقل فى التحرى من صدقه سواء فى التأكد من أحوال الرواة ، أو من صدق المحتوى ذاته ، وغير ذلك من سبل التأكد من الخبر .

كذلك دور العقل فى معرفة المعجزات من حيث كونها معجزة والتمييز بينها ، وبين تمويهات السَحَرة ، ولقد سبق أن أشرنا فى الحديث عن العلم بأصل النبوات إلى دور العقل ، وسوف نذكر فى الحديث عن أنواع المعجزات معجزات عقلية بجانب المعجزات الحسية .

❊ ❊

٥ - أنواع المعجـــــزات

لم تكن المعجزات التى أتى بها الرسل كدليل على صدقهم من نوع واحد ، فكما تنوعت أدلة صدقهم ، فلقد تنوعت أيضاً معجزاتهم ، كأحد الأدلة على صدقهم .

ويمكننا أن نقسم تلك المعجزات إلى قسمين هما :

(أ) المعجزات الحسية .

(ب) المعجزات العقلية .

وسوف نتناولهما بشىء من التفصيل ، وسوف نركز بصفة خاصة على المعجزات العقلية .

(أ) المعجزات الحسية :

المعجزات الحسية هى معجزات مشاهَدة حسية ، وقعت من الأنبياء بالفعل ، لكنا خارقة للعادة وما ألفه الناس ، يقول الماوردى : « إن الله تعالى قدَّر لعباده أفعالاً ، كما قدَّر لهم أجساماً وآجالاً ، انتهى إلى غاية أعجزهم عن تجاوزها لتكون أفعالهم مقصورة على عُرفٍ مألوف وحَدٍ معروف ، يتوصلون بها إلى مصالحهم فيعلمون أن ما تجاوزها وخرج عن عرفها من أفعال الله تعالى فيهم ، لا من أفعالهم ، فإن أظهرها فى أحدهم دل على اختصاصه بالله تعالى دونهم فكان بها ممتازاً وإليه تعالى منحازاً ، ليخص بطاعة إلَهية كما اختص بأفعال لاهوتية ، فلذلك صارت الأفعال المعجزة شاهدة على صحة النبوة »[1] .

ولقد حدثت من الأنبياء أفعال خارجة عن المعهود والمألوف لدى الناس ، أو تفوق قدرتهم واستطاعتهم .

ومن هذه المعجزات الحسية التى أوردتها الأخبار والآثار المروية والمتواترة ، فلق البحر لموسى عليه السلام ، وقلب العصا حية ، وجرت على يد عيسى عليه السلام الكثير من المعجزات كإبراء الأكْمَة والأبرص وإحياء الموتى ، وأيضاً حدثت للنبى محمد عليه السلام مثل هذه المعجزات الحسية كإطعام العدد الكبير من الطعام اليسير .

وسبيل معرفة تلك المعجزات هو الخبر المتواتر ، إذ أن أكثر الناس لا يشهدون حُجَج الرسل ، ولا يحضرون حدوث تلك المعجزات ، إما لبُعْد الدار ، أو لتعاقب الأعصار ، فطبع الله كل فريق على الإخبار بما عاين فيعلمه الغائب من الحاضر ، ويعرفه المتأخر من المعاصر .

وخبر التواتر إذا انتفت عنه الريب ، فإنه حق لا يعترضه شك ، وصدق لا يشتبه بإفك ، فصار وروده كالعيان فى وقوع العلم به اضطراراً ، فثبت به الحُجَّة ولزم به العلم[2] .

---

(١) الماوردى : أعلام النبوة ص ٩٩٠

(٢) المرجع السابق ص ٣٦ - ٣٧

أى أن العلم بهذه المعجزات جاء إلينا عن طريق الخبر المتواتر الذى لا يعتريه الشك ، أو تثبت صحته عن طريق المنهج النقدى الذى يتبع لصحة وسلامة الخبر المتواتر وقد أصبح بذلك مصدراً من مصادر العلم بحدوث تلك المعجزات ، إن لم يكن مصدرها الوحيد لمن بعد به الزمان والمكان عن حدوث تلك المعجزات .

لكن قد أثيرت إشكالات كثيرة حول هذه المعجزات ، منها : مَن الفاعل لهذه المعجزات ؟ هل هو الله أم النبى ؟ وهل المقصود من فعلها تصديق النبى أم لا ؟ ثم إن فى العقل كفاية عن الرسل ، لأن بمقدوره التحسين والتقبيح ، وغير ذلك من الاعتراضات .

ولقد ذكر الرازى هذه الاعتراضات وغيرها بالتفصيل وردَّ عليها ، ومجمل رده يقوم على إثبات أن فاعل المعجزات هو الله تعالى ، لأنه لا مؤثر ولا موجد ولا مكوِّن إلا الله تعالى ، ولعل الرازى بذلك يشير إلى موقف الأشاعرة من فكرة السببية ، وأن العلاقة بين الأسباب والمسببات ليست ضرورية بل اقترانية ، وذلك لإتاحة الفرصة للقول بالمعجزات .

أما القول بأنه يجوز أن يكون الله قد خلقها - أى المعجزات - لأغراض أخرى ليس من بينها تصديق دعوى النبى بأنه مرسَل من عند الله ، وأن المعجزة آية صدقه .

يجيب الرازى عن ذلك بأن وجود أكثر من احتمال وجواز أكثر من وجه لحدوث تلك المعجزات ، قد لا يمنع من حصول القطع والجزم بواحد منها ، أى مع قيام تلك الاحتمالات : ما المانع من كون أحدها - وهو تصديق دعوى النبى - هو الاحتمال الراجح والسبب الذى من أجله حدثت المعجزة .

ويحاول الرازى أن يورد دليلاً على ذلك ، وهو أن موسى عليه السلام لما أمر القوم ببعض التكاليف ، وأبوا ، وأصرُّوا ، طلب من الله تعالى أن يوقف الجبل فوق رؤوسهم ، ثم إنهم كانوا يشاهدون أنهم كلما قصدوا الطاعة والامتثال ، فذلك الجبل يتباعد عن رؤوسهم ، وكلما قصدوا العود إلى العتو والإصرار والكفر

فذلك الجبل يقرب منهم ، بحيث خافوا من وقوعه عليهم ، ومن المعلوم أن حصول هذه الحالة على هذا الوجه ، يفيد العلم الضرورى بأن الله تعالى إنما أوقف الجبل فوق رؤوسهم ، لأجل أن يتبادروا إلى الطاعة والامتثال ، وتجويزاً أن يكون الغرض من إظلال ذلك الجبل شيئاً آخر سوى هذا المقصود لا يقدح فى حصول العلم الضرورى بأنه لا مقصود منه سوى ذلك ، أى أنه يحصل القطع والجزم مع قيام التجويز .

وبذا يثبت أن الله خالق كل المعجزات ، وأيضاً يثبت أنه لا حكمة لله تعالى من خلق تلك المعجزات إلا التصديق ، وهذا يفيد العلم اليقينى بأن الله تعالى إنما خلق هذه المعجزات ، لأجل تصديق الأنبياء والرسل ، والعلم الضرورى حاصل بأن الكذب على الله تعالى محال ، لأنه صفة نقص ، وشهادة الفطرة دالة على أن صفة النقص محال على الله تعالى ، وعند هذا يحصل الجزم واليقين بأن ظهور المعجزات يدل على صدق الأنبياء عليهم السلام .

أما مسألة التقبيح والتحسين العقليين ، فإنه لا تحسين ولا تقبيح إلا ما حسَّنه الشرح أو قبَّحه (١) .

---

(١) الرازى : النبوات وما يتعلق بها ص ٧٩ - ١٦٨ ، حيث أورد مذاهب منكرى النبوة وشبهات هؤلاء المنكرين ، والذى يهمنا الإشارة إليه من هذه الشبهات هو شبهاتهم التى أوردوها بخصوص المعجزات وقولهم بأن القول بخرق العادات محال ، ثم إن المعجزات لا يمكن أن يُعلم أنها حدثت بفعل الله وتخليقه ، وبيان أنه متى تعذر العلم بذلك امتنع الاستدلال بها على صدق المدعى ، ثم شبهات القائلين بأنه على تقدير أن يثبت أن خالق المعجزات هو الله سبحانه وتعالى ، إلا أن ذلك لا يدل على أنه تعالى إنما خلقها لأجل تصديق مدَّعى الرسالة ، ثم الاعتراض على الدلائل التى يستدل بها بظهور المعجز على صدق المدعى.

ثم أورد نوعاً آخر من الشبهات فى بيان أن ظهور الفعل الخارق للعادة الموافق للدعوى مع عدم المعارضة لا يدل على صدق المدَّعى .

وأيضاً لو قُدِّر أن يكون المعجز قائماً مقام ما إذا صدَّقه الله تعالى على سبيل التصريح ، فهل يلزم من هذا كون المدعى صادقاً .

وأيضاً طعنهم فى التواتر ، وقولهم : إنه لو أرسل إلى الخلق رسولاً لوجب أن يكون من الملائكة .

وقد أجاب الرازى جملة على تلك الشبهات والاعتراضات ولقد أوجزنا رأيه .

وعلى ذلك فلقد ثبت حدوث هذه المعجزات - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك - عن طريق الخبر المتواتر .

لكن التساؤل الآن ، هو مدى قوة دلالة تلك المعجزات الحسية على صدق النبى على أنه مرسَل من عند الله ؟ وهل هى وحدها كافية للصدق ؟ وهل هى مطلوبة لذاتها ؟

كل هذه التساؤلات وغيرها مما تثيره المعجزات الحسية يمكننا أن نجيب عليها ، من خلال عرض موقف القرآن من تلك المعجزات ، وإجابته لمن طلبها ، ثم نشير إلى موقف بعض المفكرين الإسلاميين ونشير إلى ذلك بإيجاز فيما يلى :

لقد أقام القرآن الكريم الإيمان بالله تعالى على أساس الدليل والبرهان ، وطالب معتنقيه بضرورة التأمل فى المعجزة الكونية الظاهرة ، ولقد رد أكثر من مرة على أولئك الذين يطالبون بمعجزة خارقة للطبيعة ، كأن ينزل عليهم الملائكة ، أو ينزل عليهم كتاب من السماء فيلمسوه بأيديهم ، أو يريدون علامات أو آيات تصعقهم أو تسحقهم بشدة ، وكلما أرادوا علامات خارقة للطبيعة ، كان القرآن يلفت أنظارهم إلى الطبيعة الظاهرة ، وينبههم إلى أنهم لم يدركوا الله فى آثاره الطبيعية الظاهرة العادية ، فكيف يتسنى لهم إدراكه فى الآثار الخفية الشاذة .

إن القرآن يحول أنظار الإنسان من البحث فى الأمور الخارقة للطبيعة إلى الأمور الطبيعية التى تقود إلى فهم الحياة (١) .

ومن الآيات القرآنية التى نهى فيها عن طلب المعجزة الحسية وردَّ فيها على المطالبين بها ، قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣) ، ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) Khalif : Islamic Ideology P . 27 - 28

(٢) الأنعام : ٤ (٣) الأنعام : ٧ (٤) الأنعام : ١٠٩

القرآن بذلك يريد أن ينتقل بالإنسان من مرحلة الإيمان عن طريق المعجزة الحسية وحدها الخارقة للطبيعة التى تبهر أنظار مَن يشاهدها ، إلى طريق الإيمان القائم على التفكير والعلم والبرهان ، وعلى لفت الأنظار إلى الواقع المحسوس ، وإلى أن المعرفة تبدأ من المحسوس ، وقُدرة العقل على تحصيل ذلك المحسوس واستيعابه هو الذى ييسر له الانتقال من المحسوس إلى غير المحسوس .

فمعرفة الله تعالى تكون عن طريق معرفة آثاره الظاهرة فى الطبيعة والتأمل فيها، ومعرفة ما فى العالَم الخارجى من نظام واتساق يدل على مدبر حكيم عليم .

أى أن مرحلة الإيمان القائم على المعجزات الحسية الخارقة للطبيعة ، كانت تتناسب مع الطبيعة البشرية فى ذلك الوقت ، والتى لم تنضج قواها العقلية نضجاً كافياً ، يساعد كل الناس على تحصيل المعرفة الإلهية عن طريق التفكير والتأمل ، لا عن طريق الحس وخرق القوانين الطبيعية .

إنه تغيير محورى يكون دليل الصدق فيه هو اتساق القانون الطبيعى لا أن يكون خرق ذلك القانون - وانتقال بالإنسان من بناء إيمانه على المعجزات الحسية إلى بنائه على المعجزات العقلية .

ولقد ذكر القرآن أنه لو كانت المعجزات الخارقة للعادة كافية ومقنعة لما كذَّب بها الأوَّلون بعد أن ألحوا فى طلبها ، وأجيبوا إليها ، فرأتها أبصارهم رأى العين ، ولكن عدم وجود صلة عقلية بين تلك الآيات وبين ما أريدت له من إثبات رسالات الرسل كان من نتائجه الغريبة أنه لا تكاد تنزل الآيات لطلابها حتى يسارع إلى نفوسهم الشك فيها بعد الإصرار على طلابها واللجاج فى استنزالها ، فمنهم مَن يراها من أنواع السحر ، ومنهم مَن يُكذِّب بها بغياً وعدواناً ، ﴿ . . . وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) ، (٢) .

---

(١) الأنعام : ١٠٩

(٢) عبد العزيز جاويش : الإسلام دين الفطرة ص ١٧٤ ، وانظر أيضاً لموقف القرآن من المعجزات الحسية : الدكتور محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص ٧٩ - ٨٠

ونجد على سبيل المثال الماتريدى يذكر المعجزات الحسية الكثيرة التى حدثت للنبى عليه السلام كتظليل السحاب له ، وشق صدره ، وإنشقاق القمر ، وحنين الجذع ، وتسليم الحجر عليه ، وشربهم من الماء القليل بين أصابعه ، وإبتلاء أعدائه بدعائه ، ثم إنهم استغاثوا به فأغيثوا - وشكاية الناقة ، وإطلاعه على ما يضمره المنافقون ، وما أخبر به أصحابه عن أحداث ستحدث لهم ، وإخباره عن الفتوح ، ونُصرة الدين ، وذلك قبل وقوع تلك الأحداث .

وعلى الرغم من كثرة هذه المعجزات الحسية والتى وقعت على يد النبى محمد صلى الله عليه وسلم وثبوتها ، إلا أن الماتريدى لا يعلق عليها أهمية كبيرة ، ويرى أن المعجز العقلى - وهو القرآن الكريم - هو المعجز الخالد الباقى [1] .

ويرى الغزالى أن معرفة النبوة وإدراك معناها ودليل صدقها ،بالنظر فى القرآن والأخبار ، وتأمل مضمون الرسالة ذاتها ، فتأمل ذلك كله ، وتجربة ما قاله النبى فى العبادات وتأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق قوله : « مَن عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم » ، وكيف صدق فى قوله : « مَن أعان ظالماً سلَّطه الله عليه » ، وكيف صدق فى قوله : « مَن أصبح وهمومه هم واحد كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة » .

أى أن الغزالى يجعل من تطبيق كلام النبى ﷺ فى الواقع دليل على صدقه ، ويفرِّق بين ذلك الطريق وطريق المعجزات الحسية ويفاضل بينهما فيقول : « فمن هذا الطريق أطلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعباناً وشق القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارقة عن الحصر ، ربما ظننت أنه سحر وتخييل ، وأنه من الله إضلال ، فإنه تعالى : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ [2] ، [3]

ولقد ذكر الرازى أن القائلين بالنبوة فريقان ، أحدهما : الذين يقولون إن ظهور

---

(١) الماتريدى : التوحيد ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤

(٢) الغزالى : المنقذ من الضلال ، ص ٨٢ - ٨٤ (٣) النحل : ٩٣

المعجزات على يد النبى يدل على صدقه ، ثم نستدل بقوله على تحقيق الحق وإبطال الباطل .

والثانى : أن نعرف أولاً أن الحق والصدق فى الاعتقادات ما هو ؟ وأن الصواب فى الأعمال ما هو ؟ فإذا عرفنا ذلك ، ثم رأينا إنساناً يدعو الخلق إلى الدين الحق ، ورأينا أن لقوله أثراً قوياً فى صرف الخلق عن الباطل إلى الحق ، عرفنا أنه نبى صادق ، واجب الاتباع ، وهذا الطريق أقرب إلى العقل ، والشبهات فيه أقل (١) .

ومما سبق أن ذكرناه وأشرنا إليه يتبين لنا أن المعجزات الحسية التى جاءت على أيدى الأنبياء ، لا تكون وحدها هى الطريق الوحيد إلى إثبات نبوة الأنبياء ، بل هى تمثل أحد هذه الطرق ، بل إنها ليست وحدها فى طريق المعجزات ، بل هى أضعف دلالة وقوة من النوع الثانى من المعجزات وهو المعجزات العقلية والذى سوف نتحدث عنه فيما بعد .

لكننا يجب أن نذكر أن الحكم على هذه المعجزات الحسية من حيث القوة أو الضعف ، لا يعنى الشك فيها كحدث وقع بالفعل واقترن بدعوى الأنبياء وكان دليلاً على صدقهم ، لكننا نلاحظ على ذلك النوع من المعجزات عدة ملاحظات نوجزها فيما يلى :

أولاً : أن هذه المعجزات كانت مناسبة للأقوام التى حدثت بينهم تلك المعجزات ، ومما اشتهروا فيه ، والقصد منها إثبات قصورهم فيما برعوا فيه ، وذلك القصور يثبت صدق النبى فى دعواه ، لأنه متقدم عليهم فى جنس ما برعوا فيه .

ثانياً : ينقلنا هذا إلى أن طبيعة تلك المعجزات هو التحدى ، وأن يذعن الخلق للرسول ، عندما يثبت فشلهم فى التحدى ، فيسلِّموا له بعد ذلك بما جاء به من أمور تكليفية يُبلِّغها عن الله ، ولقد ذكر ابن خلدون أن التحدى جزء من المعجزة (٢) .

---

(١) الرازى : النبوات ص ١٧١ (٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٧

ثالثاً : لعل هذا يشير إلى طبيعة تلك المعجزات أنها لا تدخل فى مضمون الدعوى ذاتها ، حيث إنها لا تحوى تعاليم معينة ، بل هى مقدمة ضرورية ، يُسلِّم بها القوم للنبى ، ويأخذون عنه مضمون الرسالة .

رابعاً : لا يدخل التصديق بهذه المعجزات من ضمن التصديق بالرسالة وما فيها من أُمور تكليفية تعبدية ، أى أن التصديق بها وحدها ليس كافياً للإيمان بما جاء به الرسول ، كما أن إنكارها لا يعنى بالضرورة إنكار ما جاء به الرسول .

خامساً : مهما بلغت الثقة بالخبر المتواتر ، ومهما قيل عن إفادته لليقين ، لكن يقينه لا يبلغ درجة يقين الحس المشاهد ، لذا فهى ملزمة لمن شاهد وقوعها ، لكنها غير ملزمة لمن لم يشاهدها .

سادساً : ضرورة تدخل العقل فى المعجزات الحسية ، وذلك للتأكد من نسبتها إلى النبى ، وأنها تدل على صدقه ، وذلك بالتمييز بينها وبين غيرها مما يشابهها ، كالكرامة أو السحر أو الحيل الأخرى .

سابعاً : أنها لا ترقى فى قوة دلالتها إلى المعجزات العقلية ، التى هى أدوم وأثبت ، والتى لا يتطرق إليها التكذيب ، أو حتى التشابه بغيرها .

ثامناً : أن المعجزات الحسية لم تكن صارفة للناس عن الكفر ، ولقد منع الله أن يؤيد بها محمد ﷺ ، وأُعطى بدلها « إعجاز القرآن الكريم » .

وهذا المعنى يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

تاسعاً : أن المعجزات الحسية معجزات وقتية ، وبالتالى معرَّضة للنسيان ، بينما المعجزة العقلية معجزة دائمة ،تأثيرها دائم ومفعولها مستمر ، فهى باقية فى كل زمان ومكان .

❊

---

(١) العنكبوت : ٤٩ - ٥٠

(ب) المعجزة العقلية :

المقصود بالمعجزة العقلية هى التى ليست فعلاً حسياً خارقاً لقوانين الطبيعة التى ألفها الناس ، وذلك لكى تجعلهم يسلِّمون بصدق دعوى النبى ويذعنون لما جاء به .

لكن المعجزة العقلية هى التى تقوم على العقل ويمكن للعقل إدراكها بالتأمل فيها ، وإدراك أنها تفوق قدرة العقل البَشرى .

وقد يبدو فى هذا شيئاً من التناقض ، إذ تبدو أنها مناقضة للعقل ، وأنها تجبر العقل وتضطره إلى التسليم ، لكن يمكن أن يزول هذا التناقض ، إذا تأملنا طبيعة المعجزة ذاتها . سواء معجزة حسية أو معجزة عقلية ، فهى تعنى أنها غير معتادة وغير مألوفة ، سواء أكان هذا خروجاً عن الطبيعى المألوف لدى البَشر ويقع فى مجال قُدرتهم ، أو أيضاً خروج عن المألوف من قُدرة العقل البَشرى ، فهى ليست نتاجاً للعقل البَشرى .

أيضاً مما يزيل هذا التناقض ، هو أن عمل العقل هو الرسالة ذاتها ، وإدراك مضمونها ، فالمعجزة ليست خارجة عن الرسالة ، بل الرسالة هى بذاتها معجزة بما تحويه من مضمون ، والعقل يُسلِّم بها عن طريق النظر فيها .

وهناك إشارة إلى ذلك المعنى نجدها عند ابن خلدون ، الذى رأى فى معجزة القرآن كمال المعجزات ، إذ اتحد الدليل والمدلول فيها .

يقول ابن خلدون : « وإذا تقرر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها ، وأوضحها دلالة : القرآن الكريم ، المنزَّل على نبينا محمد ﷺ ، فإن الخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ، ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه ، والقرآن هو بنفسه الوحى المدَّعى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهده فى عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى ، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه .

وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبى من الأنبياء إلا وأُوتِىَ من

الآيات ما مثله آمن عليه البَشر ، وإنما كان الذى أُوتيته وحياً أُوحى إلىّ ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوله الدلالة وهو كونها نفس الوحى كان الصدق لها أكثر لوضوحها ، فكثر المصدِّق المؤمن وهو التابع والأُمَّة » (١) .

ولقد أكد الإمام محمد عبده على أن معجزة النبى محمد عليه السلام ، تختلف عن سائر المعجزات ، إذ أنها تقوم على حال النبى نفسه والقرآن المنزَّل عليه ودعوة العقل لإدراك وجوه هذا الإعجاز .

يقول الإمام محمد عبده : « جاء القرآن فنهج بالدين منهجاً لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة ، منهجاً يمكن لأهل الزمن الذى نزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه ، فلم يقصر الاستدلال على نبوة النبى ﷺ بما عهد من الاستدلال به على النبوات السابقة ، بل جعل الدليل فى حال النبى مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز العلماء عن محاكاته فيه ولو فى مثل أقصر سورة فيه . وقص علينا من صفات الله ما أذن لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم ، لكن لم يطلب التسليم به ، لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه أقام الدعوى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين وكرَّ عليها بالحُجَّة وخاطب العقل ، واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والاتفاق على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادَّعاه ودعا إليه » (٢) .

فى هذا النص يشرح الإمام طبيعة المعجزة العقلية التى جاء بها الإسلام ، وهى تعتمد على العقل وتخاطبه وتحفزه إلى النظر والتأمل .

ولقد رأى الإمام أن النظر العقلى هو الأصل الذى بُنِىَ عليه الإسلام ، وأن العقل هو وسيلة الإيمان الصحيح ، وأن منهج القرآن فى إثبات الإيمان هو العقل

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٨ (٢) الإمام محمد عبده : رسالة التوحيد ص ٧

والفكر وإقامة البرهان ، فهو كما يقول الإمام : « لا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية » (١) .

ولقد ذكر الباقلانى أن نبوة النبى ﷺ معجزتها القرآن ، فهو وإن كان قد أُيِّد بمعجزات كثيرة ، إلا أن تلك المعجزات قامت فى أوقات خاصة ، وأحوال خاصة ، ونُقِل بعضها نقلاً متواتراً يقع به العلم وجوداً وبعضها مما نقل نقلاً خاصاً ، إلا أنه حُكِى بمشهد من الجمع العظيم وأنهم شاهدوه ، فلو كان الأمر على خلاف ما حكى لأنكروه ، أى أن دليل بعض تلك المعجزات التواتر ، والبعض الآخر هو الآحاد .

أما عن معجزة القرآن فهى باقية وعامة وثابتة إلى يوم القيامة ، يقول الباقلانى : « فأما دلالة القرآن فهى عن معجزة عامة ، عمَّت الثَّقَلين وبقيت بقاء العصرين ، ولزوم الحُجَّة بها فى أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد ، وإن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله وجه دلالته ، فيغنى ذلك عن نظر محدد فى عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله ، عن النظر فى حال أهل العصر الأول » (٢) .

وأيضاً ذهب الرازى إلى أن القرآن هو المعجزة الأكمل والأتم بالنسبة للنبى ﷺ ، وأنها تفوق فى قوتها ودلالتها أى نوع آخر من المعجزات الخارقة للطبيعة (٣) .

وإذا انتقلنا إلى موقف ابن رشد ، فإننا سوف نلاحظ منذ الوهلة الأولى اهتمامه بالجانب العقلى فى المعجزة أكثر من اهتمامه بالجانب الحسى .

ويقول ابن رشد بأن النبى ﷺ لم يتَحدَّ بخارق من خوارق الأفعال مثل قلب عين أخرى ، وأن ما ظهر على يديه من الخوارق والكرامات إنما ظهرت فى أثناء أحواله من غير أن يتحدى بها ، أما الذى دعا به الناس وتحدّاهم به ، هو الكتاب

---

(١) الإمام محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص ٤٧ - ٤٨

(٢) الباقلانى : إعجاز القرآن ص ٨ (٣) الرازى : النبوات ص ١٧٧ وما بعدها .

العزيز ، وعلى هذا فخارقه ﷺ الذى تحدَّى به الناس وجعله دليلاً على صدقه فيما ادَّعى من رسالته هو الكتاب العزيز .

إن ابن رشد يميز بين نوعين من المعجزات بعجز برانى (معجز حسى) ، ومعجز جوَّانى (معجز عقلى) ، ويفضل القول بالمعجز الجوانى الذى يتمثل أساساً فى القرآن ، كما يرى أن المعجز البرانى لا يناسب الصفة التى سمَّى النبى نبياً أو التصديق الواقع من قِبَل هذا المعجز هو طريق الجمهور فقط ، أما التصديق بالمعجز الجوَّانى فإنه يُعد طريقاً مشتركاً للجمهور والعلماء معاً .

وفيما سبق أن أشرنا وعرضنا من آراء عديدة ومتنوعة ، وتمثل كافة الاتجاهات من مفكرين ومتكلمين وفلاسفة قديماً وحديثاً ، يتبين لنا التأكيد على المعجزة العقلية وهى القرآن الكريم (١) .

* * *

ثالثاً : معجزة القرآن الكريم

لقد ذكرنا فيما سبق أن القرآن يمثل المعجزة الخالدة ، وعلينا أن نتبين حقيقة تلك المعجزة ، وما تحويه من وجوه الإعجاز .

لذا سوف نتناول هذا كله بالتفصيل ، ونبدأ بتعريف القرآن .

١ – تعريف القرآن وأسماؤه وصفاته

القرآن فى الأصل مصدر على وزن فعلان – بالضم ، كالغفران والشكران .

نقول قرأته قرءاً وقراءة وقرآناً بمعنى واحد ، أى تلوته تلاوة .

---

(١) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ٢١٤ – ٢١٧ ، الدكتور عاطف العراقى : المنهج النقدى فى فلسفة ابن رشد ص ١٥٨

ويلاحظ أننا لم نلتزم بالجانب التاريخى فى عرض الآراء ، لذا انتهينا بعرض آراء ابن رشد وإن سبق أن عرضنا لآراء مَن أتى بعده ، وذلك لأننا انتهينا بعرض آراء الفلاسفة .

ولقد جاء إستعمال القرآن بهذا المعنى المصدرى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (١) . . أى قراءته .

ثم صار عَلَماً شخصياً لذلك الكتاب الكريم ، وهذا هو الاستعمال الأغلب ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (٢) .

. وهو يُطلق بالاشتراك اللفظى على مجموع الكتاب ، وعلى كل قطعة منه ، فإذا سمعت مَن يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ ﴾ (٣) .

ولقد ذكر بعض العلماء أن تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه مصدِّقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها ، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائداً عليها ، وكان ساداً مسدَّها ولم يكن شئ منها ليسد مسدّه ، فقضى الله أن يبقى حُجَّة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمراً يسَّر له أسبابه ، وهو الحكيم العليم .

والقرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص ، بحيث يكون تعريفه حداً منطقياً ، وذلك لأن القرآن اسم جزئى حقيقى ، وشأن الجزئيات الحقيقية لا يمكن تحديدها بهذا الوجه ، لأن أجزاء التعاريف المنطقية كليات ، والكلى لا يطابق الجزئى مفهوماً ، لأنه يقبل الانطباق على كل ما يُفرض مماثلاً له فى ذلك الوصف ذهناً وإن لم يوجد فى الواقع ، فلا يكون مميزاً له عن جميع ما عداه ، فلا يكون حداً صحيحاً .

وإنما يحدد الجزئى بالإشارة إليه فى الحس ، أو معهوداً فى الذهن ، فإذا أردت أن تُعرِّف القرآن تعريفاً تحديدياً فلا سبيل إلى ذلك إلا بأن تشير إليه مكتوباً فى المصحف أو مقروءاً باللسان .

أما ما ذكره العلماء من تعريفه بالأجناس والفصول كما تُعرَّف الحقائق الكلية ، فإنما أرادوا به تقريب معناه وتمييزه عن بعض ما عداه مما قد يشاركه فى الاسم ،

---

(١) القيامة : ١٧ - ١٨ (٢) الإسراء : ٩ (٣) الأعراف ٢٠٤

ولو توهمنا ذلك أن سائر كتب الله تعالى والأحاديث القدسية وبعض الأحاديث النبوية تشارك القرآن فى كونها وحياً إلهياً فربما ظُنَّ أنها تشركه فى اسم القرآن أيضاً .

فأرادوا بيان اختصاص الاسم به ببيان صفاته التى امتاز بها عن تلك الأنواع فقالوا : « القرآن هو كلام الله تعالى ، المنزَّل على محمد ﷺ المتعبَّد بتلاوته » .

فـ « الكلام » جنس شامل بكل كلام ، وإضافته إلى الله تميزه عن كلام مَن سواه من الإنس والجن والملائكة .

و « المنزَّل » مخرج للكلام الإلهى الذى استأثر الله به فى نفسه ، أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البَشر ، إذ ليس كل كلامه تعالى منزَّلاً ، بل الذى أُنزِل منه قليل .

وتفيد « المنزَّل » بكونه على « محمد » لإخراج ما أُنزِل على الأنبياء من قبله كالتوراة المنزَّلة على موسى ، والإنجيل المنزَّل على عيسى ، والزبور المنزَّل على داود ، والصحف المنزَّلة على إبراهيم عليهم السلام .

و « المتعبَّد بتلاوته » أى المأمور بقراءته فى الصلاة وغيرها على وجه العبادة - لإخراج ما لم نؤمر بتلاوته من ذلك كالقراءات المنقولة إلينا بطريق الآحاد ، وكالأحاديث القدسية وهى المسندة إلى الله عَزَّ وجَلَّ .

وأسماء القرآن عديدة تدل على شرفه وفضله ، ولقد ذكر الفخر الرازى للقرآن اثنى وثلاثين اسماً ، وجعل الفيروز آبادى للقرآن مائة اسم .

وعلى كل فإن أشهر أسماء القرآن هى :

الذكر : لأن الله ذكَّر به عباده ، وعرَّفهم فيه فرائضه وحدوده : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ (١) .

---

(١) الأنبياء : ٥٠

الفرقان : لأنه فرَّق بين الحق والباطل : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (١) .

الكتاب : لأن الله كتب أحكامه وتكاليفه على عباده ، أى أوجبها عليهم قال تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ (٢) .

القرآن : أى البيان ومنه : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (٣) أى بيناه ، لأن فيه بيان للناس لما يحتاجون إليه فى أمور دينهم .

ولقد وصف الله القرآن بأوصاف كثيرة منها :

نور : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ (٤) .

هدىً ، شفاء ، رحمة ، موعظة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

مبارك : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (٦) .

مبين : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (٧) .

بُشرَى : ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) .

عزيز : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ (٩) .

مجيد : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ (١٠) .

بشير ونذير : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ (١١) .

---

(١) الفرقان : ١ (٢) الأنعام : ٩٢ (٣) القيامة : ١٨
(٤) النساء : ١٧٤ (٥) يونس : ٥٧ (٦) الأنعام ٩٢
(٧) المائدة : ١٥ (٨) البقرة ٩٧ (٩) فصلت ٤١
(١٠) البروج : ٢١ (١١) فصلت : ٣ - ٤

وكل وصف وُصِفَ به القرآن أو تسمية سُمِّيَ بها إنما باعتبار معنى من معانيه المتعددة [1] .

* *

٢- القرآن معجزة النبى وقع بها التحدى

القرآن هو معجزة النبى محمد ﷺ التى تحدَّى بها ، وهذه المعجزة هى من فعل الله تعالى ، وليست من فعل محمد ﷺ ، ولن نعرض لأقوال المعاصرين للنبى وهم الكفار المعاندون أو مَن أتى من بعدهم خلال القرون ، الذين قالوا تارة إنه من فعل محمد ، أو تلقاه على يد معلِّم ، أو تمليه عليه الشياطين ، أو هو قول ساحر . . . إلى آخر ما قالوه .

وفى عرضنا لأدلة معجزة القرآن وأنه كلام الله الذى يعلو على كلام البَشر ، وأن النبى تحدَّى به ، وعرض وجوه الإعجاز التى تضمنها القرآن ، كل ذلك يقف دليلاً على الرد على هؤلاء المخرصين المدَّعين ، فضلاً عن إثبات المعجزة .

وسوف نحاول فيما يلى أن نعرض لكون القرآن معجزة من الله تعالى على لسان نبيه وأنه تحدَّى بها ، وأنه يفوق بكل المقاييس كلام البَشر ، أما وجوه الإعجاز فسوف نخصص له مبحثاً مستقلاً بعد ذلك .

والآن نبحث عن مصدر القرآن وأنه من عند الله تعالى ، ويقف على رأس الأدلة ما ذكره القرآن نفسه ، أنه ليس من صنع محمد ﷺ ولا غيره من المخلوقات .

« نقرأ فى هذا الكتاب ذاته أنه ليس من عمل صاحبه ، وإنما هو قول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثَمَّ أمين ، ذلكم جبريل عليه السلام ، تلَّقاه من لدن حكيم عليم ، ثم نزَّله بلسان عربى مبين على قلب محمد ﷺ ،

---

(١) انظر الدكتور محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم . . نظرات جديدة فى القرآن ص ٧ - ١٢ ، منَّاع القطَّان : مباحث فى علوم القرآن ص ١٤ - ١٨ ، الدكتور عبد القادر حسين : القرآن . . إعجازه وبلاغته ص ١٣ - ١٤ .

فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصاً من النصوص ، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا :

(١) الوعى والحفظ . (٢) الحكاية والتبليغ .

(٣) البيان والتفسير . (٤) التطبيق والتنفيذ .

أما إبتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل ، وليس له من أمرهما شئ ، إن هو إلا وحى يُوحَى .

هكذا سمَّاه القرآن حيث يقول : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ، قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (٢) .

ويقول القرآن فى شأن الإيحاء اللفظى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ (٣) .

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴾ (٤) .

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (٥) .

وكل ذلك يدل على أن القرآن صريح فى أنه لا صنعة فيه لمحمد ﷺ ولا لغيره من الخلق ، إنما هو منزَّل من عند الله بلفظه ومعناه (٦) .

وإذا كان القرآن قد صرَّح بأنه ليس من صنع النبى ، فإن النبى نفسه يؤكد ذلك ، فهو لم يدَّع يوماً قط أنه قادر على الإتيان بمعجزة ، لقد كان يقول دائماً فى الرد على مَن يتحدونه من المشركين أو اليهود ، إن هو إلا بشراً رسولاً .

ولقد كان صادقاً مع نفسه فى ذلك ، فلم ينتهز فرصة كسوف الشمس يوم موت

---

(١) الأعراف : ٢٠٣ (٢) يونس : ١٥ (٣) يوسف : ٢

(٤) الأعلى : ٦ (٥) القيامة : ١٦ - ١٩

(٦) الدكتور محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ١٣ ، ١٤

ابنه وفلذة كبده إبراهيم مثلاً ، ويدعّى أنها آية إلهية على مشاركة الكون له فى أحزانه .

كان صادقاً حينما لم ينف وقوع المعجزات من الأنبياء والرسل الذين سبقوه ، وقد كان فى إمكانه إنكار ذلك حتى يسوّى بينه وبينهم فى عدم وقوع المعجزة وغلق باب التحدى .

بل لقد اعترف عليه الصلاة والسلام بمعجزات إخوانه السابقين ، وفى نفس الوقت أكد أنه ليس إلا بشراً رسولاً [1] .

لقد كانت تنزل النوازل والأحداث به صلى الله عليه وسلم ومن شأنها أن تحفزه إلى القول ، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً ، ولكنه كانت تمضى الليالى والأيام ، ولا يجد فى شأنها قرآناً يقرؤه على الناس .

ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة رضى الله عنها وأبطأ الوحى وطال الأمد والناس يخوضون حتى بلغت القلوب الحناجر وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس : « إنى لا أعلم عنها إلا خيراً » واستشار الأصحاب ومضى شهر بأكمله والكل يقولون : « ما علمنا عليها من سوء » .

فما الذى كان يمنعه لو أن أمر القرآن إليه ، أن يتقوّل هذه الكلمة الحاسمة ليحمى بها عِرضه ويذب بها عن عرينه وينسبها إلى الوحى السماوى لتنقطع ألسنة المتخرّصين ؟

ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [2] ، [3] .

---

(١) الدكتور إبراهيم عوض : مصدر القرآن ص ٧١ ، ٧٢ من النسخة المخطوطة .

(٢) الحاقة : ٤٤ - ٤٧ (٣) الدكتور محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ١٧

وأحياناً كان يأتى الوحى على غير ما يحبه ويهواه ، فيُخطِّئه فى الرأى يراه ، ويأذن له فى الشئ لا يميل إليه ، فإذا تلبَّث فيه يسيراً تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد والعتاب القاسى ، والنقد المر ، حتى فى أقل الأشياء خطراً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ، تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ (١) ، ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ (٢) .

أرأيت لو كانت هذه التعريفات المؤلمة صادرة عن وجدانه ، معبِّرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه ، أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع ؟

ألم يكن فى السكوت عنها ستر على نفسه واستبقاء لحرمة آرائه ؟

بلى إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذلك الوجدان ، ولو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات ، ولكنه الوحى لا يستطيع كتمانه : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ (٣) ، (٤) .

أما ما يذكره المعارضون للقرآن كوحى سماوى ، وأنه قد تلقاه محمد ﷺ من معلمين أساتذة له ، فهو قول فاسد ، يحمل فى طيَّاته كذبه وبهتانه .

والأدلة على كذب هذا القول أكثر من أن تُحصَى ، نذكر منها ، أن محمداً ﷺ لم يكن له مُعلِّم من قومه الأُمِّيين فذلك ما لا شبهة فيه لأحد .

بل يكفى فى الاستدلال اسم الأُميَّة الذى يشهد عليهم بأنهم كانوا لا يعلمون من أمر الدين شيئاً .

وكذلك اسم الجاهلية للعرب قبل الإسلام ، كان أخص ألقابهم ، مما يشير إلى أن هؤلاء فقدوا أساس هذا العلم فى أنفسهم حتى اشتق لهم من الجهل

---

(١) التحريم : ١ (٢) الأحزاب : ٣٧ (٣) التكوير : ٢٤

(٤) الدكتور محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ١٧ ، ١٨ ، وانظر أيضاً : عمر عبيد حسنة : معرفة الوحى الإطار المرجعى والضابط المنهجى لمعرفة العقل ص ٧ - ١٠ ، وانظر أيضاً : بغدادى بلقاسم : المعجزة القرآنية ص ١١٧ - ١٢٤

اسم ، كيف يحملون وسام التعليم فيه لغيرهم ، بله التعليم لمعلمهم الذى وسمهم بالجهل غير مرة فى كتابه ، وسرد جهالاتهم فى غير سورة من هذا الكتاب .

أيضاً لا يمكن أن يكون المعلِّم من غيرهم ، فعلى الرغم من أن النبى قد التقى ببعض العلماء والرهبان قبل النبوة وبعدها ، إلا أن ذلك لا يقوم دليلاً على أنه استقى منهم القرآن .

ولقد كتب « تايلور » فى كتابه « المسيحية القديمة » يقول : « إن ما قابله محمد وأتباعه فى كل اتجاه . . لم يكن إلا خرافات منفرة ، ووثنية منحطة ومخجلة ، ومذاهب كنسية مغرورة ، وطقوساً دينية منحلة وصبيانية » (١) .

« فكيف يأخذ عنهم محمد القرآن ، وفكرهم الدينى ملئ بالأساطير والأوهام ، والخرافات، وهذا ما تنزَّه عنه القرآن ، وأين ذلك مما احتواه القرآن من حقائق وعلم وفكر وعقيدة صحيحة . . . »

والذين لقوه بعد النبوة فقد سمع منهم وسمعوا منه ، ولكنهم كانوا له سائلين وعنه آخذين ، وكان هو لهم معلِّماً وواعظاً ومنذراً ومبشِّراً .

وأما الذين رآهم قبل النبوة فإن أمر لقائه بهم لم يكن أمراً مستوراً ، بل كان معه فى كل مرة شاهد ، فكان عمه أبو طالب رفيقاً له حين رأى راهب الشام ، وكانت زوجه خديجة رفيقة له حين لقى ورقة ، فماذا سمعه هذان الرفيقان من علوم الأستاذين ؟

هل حدَّثنا التاريخ بخبر ما جرى ؟ وما له لا يحدثنا هذا الحديث العجيب الذى جمع فى تلك اللحظة القصيرة علوم القرآن وتفاصيل أخباره فيما بين بداية العالم ونهايته .

ولماذا يتخذ خصومه من هذه الحُجَّة الواضحة سلاحاً قاطعاً لحُجَّته مع شدة سعيهم فى هدم دعواه ، والتجائهم لأوهن الشبهات فى تكذيبه وقد كان هذا السلاح

---

(١) نقلاً عن كتاب الدكتور محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن . . عرض تاريخى وتحليل مقارن ص ١٣٦

أقرب إليهم ، وكان وحده أمضى فى إبطال أمره من كل ما لجأوا إليه من مهاترة ومكابرة .

إن سكوت التاريخ عن ذلك كله حُجَّة كافية على عدم وجوده .

بل إن التاريخ قد نبأنا بما كان من أمر الرجلين ، فقد حدثنا عن راهب الشام أنه لما رأى هذا الغلام رأى فيه من سمات النبوة الأخيرة وحليتها فى الكتب الماضية ما أنطقه بتبشير عمه قائلاً : إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم .

وحدثنا عن ورقة أنه لما سمع ما قصَّه عليه النبى من صفة الوحى ، وجد فيها من خصائص الناموس الذى نزل على موسى ما جعله يعترف بنبوته ويتمنى أن يعيش حتى يكون من أنصاره .

أيضاً لا يمكن قبول تلمذة محمد ﷺ على أحد من أهل الأديان السابقة عليه ، لأن القرآن عابها ، واتهم أهلها بالتحريف .

إن هذا الاتهام - وهو تلمذة محمد على آخرين - مبعثه المعاندة والمكابرة ، التى أدت بهم إلى أن محمداً تتلمذ على يد حدَّاد رومى بمكة .

« نعم وجدوا فى مكة غلاماً تعرفه الحوانيت والأسواق ، ولا تعرفه تلك العلوم فى قليل ولا كثير ، غير أنه لم يكن أُمِّياً ولا وثنياً مثلهم ، بل كان نصرانياً يقرأ ويكتب ، فكان من أجل ذلك خليقاً - فى زعمهم - أن يكون أستاذاً لمحمد .

وبالتالى أستاذ العلماء اليهود والنصارى والعالَم أجمعين ، ولئن سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغاً لدراسة الكتب وتمحيص أصيلها من دخيلها ، ورد متشابهها إلى محكمها ، وهل كان مزوَّداً فى عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهيم ، لعرفتَ أنه كان حداداً منهمكاً فى مطرقته وسندانه ، وأنه كان عامى الفؤاد لا يعلم الكتاب إلا أمانى . أعجمى اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ﷺ ولا أحد من قومه ، لكن ذلك كله لم يكن ليحول بينه وبين لقب الأستاذية الذى منحوه إياه على رغم أنف الحاسدين .

هكذا ضاقت بهم دائرة الجد فما وسعهم إلا فضاء الهزل ، وهكذا أمعنوا فى هزلهم حتى خرجوا عن وقار العقل ، فكان مثلهم كمثل مَن يقول : إن العلم يُستقى من الجهل ، وإن الإنسان يتعلم كلامه من الببغاء ، وكفى بهذا هزيمة وفضيحة لقائله : ﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) ، (٢) .

أيضاً تُكذِّب الآراء التى يروِّجها البعض من الملحدين اليوم باسم الوحى النفسى وتفسير الوحى بأنه عبارة عن طفو أفكار النبى التى استقاها من مصادر خارجية ، ثم اختُزِنت بعد ذلك فى هامش الشعور حتى طفت على السطح فتدفقت وحياً .

وهذا التفسير غير مقبول ، لأنه لا يحدد العلاقة بين أفكار موجودة فى هامش الشعور وبين تخيل صاحب هذه الأفكار أنه يرى مَلَكاً ويسمع وحياً .

إننا جميعاً نختزن أفكاراً لا حصر لها فى هامش الشعور ومع ذلك لا تتحول فى أبصارنا إلى ملائكة سماوية ولا فى آذاننا إلى أصوات علوية ، وذلك بالإضافة إلى الأعراض التى تصاحب هذه العملية (٣) .

ونخلص من هذا أن مصدر القرآن هو الله تعالى وليس محمداً ﷺ أو غيره ، وسوف تتأكد هذه الحقيقة عند التعرض لوجوه الإعجاز .

وهذا القرآن قد تحدَّى به العرب قاطبة عن الإتيان بمثله أو بسورة منه وهم أولو المعرفة بمواقع الكلام وأجناسه وأساليبه من المنثور والمنظوم ، ولهم العادة المشهورة بالتفاخر بالبلاغة والفصاحة ، والمعرفة بطرق المعارضات ومزايا المخاطبات مع ما كانوا عليه من الحمية والأنفة والعصبية ، ومع شدة حرصهم على تكذيبه وتوهين أمره ، وإبطال دعواه .

ولقد أثبت العلماء وتواترت الأخبار بأن النبى قد تحدَّى بالقرآن .

---

(١) النحل : ١٠٣

(٢) الدكتور محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ٤٨ - ٥٨ ، ولقد أوجزنا رأيه .

(٣) الدكتور إبراهيم عوض : مصدر القرآن دراسة فى الإعجاز النفسى ص ١٥٦ - ١٥٧

فعلى سبيل المثال نرى الجاحظ مع بسطه الكلام فى كتاب « الفرق بين النبى والمتنبى » حقق القول فى التحدى لأنه رأى أن يتعذر أن ينكره منكر .

وحتى ابن الراوندى الذى طعن فى النبوة وأنكر كثيراً من روايات المسلمين لم ينكر التحدى وإنما تكلم فيما تكلم مع تسليمه ، ولم ينكر ذلك إلا لوضوح الأمر فيه .

ولقد قال فى الكتاب المسمى بـ « الزمرد » : « ولقد أطنب محمد - يعنى النبى صلى الله عليه وعلى آله - فى الاحتجاج لنفسه بالقرآن ، وبعجز الخلق عنه ، ولم يقل ذلك إلا لشهرة الأمر فيه وبلوغه فى الطعن » .

وفى القرآن تحدٍّ كثير ظاهر ، ففى ستة مواضع منه قد تحدَّى حتى لم يبق للشُبهة فيه موضع ، وفى مواضع أُخر نبَّه على أنه يتحداهم ودل عليه .

بل إن القرآن يذكر التحدى وأيضاً يذكر أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، وهذا تحدَّ مع أنه خبر عن المستقبل ، ومثله لا يجوز أن يقع من العاقل إذا لا يأمن أن يفعلوا ذلك فيظهر كذبه ، فدلَّ ذلك على أنه كان من عند علام الغيوب [1] .

ومن الآيات التى ذكر فيها القرآن التحدى قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [2] .

وفى هذه الآية وغيرها من الآيات الخاصة بالتحدى فإن المثلية المقصودة لا تختص بجانب دون جانب ، وإنما تعم جميع المناحى .

ولقد قال صاحب البحر المحيط : « والمثلية فى حُسن النظم ، وبديع الوصف

---

(١) أبو الحسن أحمد الهارونى الزيدى : إثبات نبوة النبى ص ١٩ - ٣٢ حيث أورد الآيات التى فيها التحدى بأن يأتوا بمثل القرآن أو سورة منه .

(٢) البقرة : ٢٣ - ٢٤

وغرابة الأسلوب ، والإخبار بالغيب ، مما كان وما يكون ، وما احتوى عليه من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، والقصص ، والحكم ، والموعظة ، والأمثال ، والأمن من التحريف والتبديل » [1] .

فالتحدى قد وقع ، لكن المعارضة لم تقع ، ولذلك لم يصل إلينا عن طريق الخبر وقوع هذه المعارضة . ولو ظهرت معارضة لكانت ظاهرة لا خفاء فيها ، ولذكرت ، حيث إن الدواعى والبواعث لتلك المعارضة كانت موجودة لدى المعارضين .

فلو كانت معارضة لنقلت كما نُقِل القرآن ، وكانت الدواعى إلى نقلها كالدواعى إلى نقل القرآن [2] .

وإن ما ظهر من معارضة ، فهو ليس بمعارضة حقيقية ، وذلك لأنه كلام مسترذل لا يرقى إلى مستوى متوسطى العربية فكيف يبلغ أعلى مرتبة فى الفصاحة .

فما ورد عن مسيلمة الكذَّاب ، إنما هو كلام فى غاية السخافة والركاكة - وهو وإن كان كذاباً وقحاً - فإنه كان رجلاً من العرب ، ولم يبلغ مع جهله أن يدَّعى أنه يعارض بمثل هذا الكلام القرآن ، فهو لم يورده على سبيل المعارضة ، وإنما أورده على أنه منزَّل عليه .

وأيضاً قد ورد عن ابن المقفع كلام كثير ، اعتمد فيه على ألفاظ القرآن بعينها ، وزاد فيها بعض الزيادات فى بعض الأماكن وحرَّف اللفظ وغيَّر ، وأفسد اللفظ وسلبه حسنه بتغيير النظم ، وبأسجاع باردة لا فائدة فيها وهى من جنس كلام مسيلمة .

وهذا لا يُعَد معارضة إذ أنه إبدال لفظ مكان لفظ مما يزيل حسنه ، وتطويل بلا فائدة [3] .

---

(١) الدكتور عبد الحليم محمود : دلائل النبوة ص ٢٢٣ ، وانظر أيضاً الدكتور سعد الدين السيد صالح : المعجزة والإعجاز فى القرآن الكريم ص ٦٠ وما بعدها .

(٢) أبو الحسن أحمد الهارونى : إثبات نبوة النبى ص ٣٣ - ٣٥

(٣) أبو الحسن أحمد الهارونى الزبدى : إثبات نبوة النبى ص ٣٦-٤٩ حيث أورد كثيراً من كلام ابن المقفع وغيره ، وهو لا يعد معارضة ، وانظر أيضاً الدكتور سعد الدين السيد صالح : المعجزة والإعجاز فى القرآن الكريم ص ٦٣ - ٦٧

وعلى هذا فلم تقع المعارضة من العرب للقرآن ، والسبب فى ذلك هو تعذر تلك المعارضة ، يقول أبو الحسين أحمد الهارونى : « إن كل مَن علمنا من حاله أنه لا يفعل فعلاً ما ، مع توفر الدواعى إليه ، وقوة البواعث عليه ، ومع ارتفاع الموانع عنه ، وفقد الحواجز دونه ، يُعلم أنه لم يفعله إلا لتعذره عليه ، ولولا ذلك لم يكن لنا طريق من جهة الاكتساب يُتوصل به إلى العلم بتعذر شئ على أحد »[1] .

والدواعى إلى معارضة القرآن كانت متوفرة لدى العرب ، الذين بذلوا الجهد والمال والنفس فى معاداة الرسول ﷺ وإبطال ما كان يدَّعيه من النبوة .

ولا يقال إنه خفى عليهم أن معارضة القرآن أبلغ الأشياء فى إبطال دعوى النبى ، فأعرضوا عنها إلى ما سواها واشتغلوا بما عداها .

وذلك لأنه قد عُرِف عنهم أنهم أعرف الأمم بمواقع المخاطبات ، ومذاهب المعارضات ، بل إن علمهم بالمعارضات كان أقوى علومهم ومعرفتهم بها أكثر من معارفهم .

ولا يجوز أن يكون قد خفى عليهم أن معارضته - لو تمكنوا منها - تكون أبلغ الأشياء فى توصلهم إلى مرادهم فيه .

بل إنه يمكن القول بأن معارضة القرآن - لو كان فى إمكانهم - لكانت أدعى من الحروب التى خاضوها ضد النبى ، ولعل هذا يشير إلى أن عدم معارضتهم إنما كان لعجزهم عن المعارضة ، إذ هى طريق لو تمكنوا منه لكان أيسر من الحروب وويلاتها وبذل النفس والمال .

لكن قد يقال إن هناك صوارف منعتهم عن الاشتغال بالمعارضة ، وهذه الصوارف إما أن تكون طلبهم الراحة وفرارهم من التعب الذى يلحقهم بالإتيان بالمعارضة ، أو إيثارهم الإبقاء على النبى عليه السلام حشمة له ، وكراهة لمكاشفته واستشعارهم

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠

خوفه ، وخشيته واستهانتهم به ، واشتغالهم بالحروب ، أو ظنهم أن غير المعارضة أجدى عليهم ، وأدنى إلى مرادهم .

ونشير بإيجاز إلى أن هذه الصوارف لم تكن صحيحة ، فلا يصح القول بأن القوم مالوا إلى الراحة ، لأنهم قد باشروا بمعاداته - صلى الله عليه وسلم - أموراً هي أكثر تعباً وأشد نَصَباً وأعظم خطراً من المعارضة ، فلقد خاضوا ضده الحروب كما سبق أن أشرنا .

أيضاً لا يصح أن يقال إنهم آثروا الإبقاء على رسول الله واحتشموه وكرهوا مكاشفته ، لأن القوم لم يدعوا من قبح معاملته - عليه السلام - باباً إلا قرعوه ، بل ولجوه ، والتاريخ يحدثنا عن سوء معاملتهم للنبى ﷺ .

ولا يصح أن يقال إن القوم تركوا المعارضة خوفاً منه ومن أصحابه وخشية لهم ، لأن القوم لم يخافوه ، ولم يحذروا جانبه .

ولا يصح أن يقال إنهم أعرضوا عن حديث المعارضة استهانة به - صلى الله عليه وسلم - وقِلَّة اكتراث بأحواله ، لأن القوم كانوا مهتمين بأمره ، وحروبهم معه تبين أنهم لم يخافوه خوفاً يصرفهم عن إبحاثه ، ولم يستهينوا به استهانة دعتهم إلى ترك الفكر فيه ، والانشغال بأحواله .

ولا يصح القول إن الحروب شغلتهم عن المعارضة ، لأنه كان بين مبعثه - صلى الله عليه وسلم - وأول موقعة وقعت بينه وبينهم - وهى موقعة بدر - نحواً من خمس عشرة سنة فأين كانوا طوال هذه المدة ؟

ولا يصح أن يقال إنه خفى عليهم أن المعارضة أجدى عليهم وأدنى إلى ما طلبوه من توهين أمره ، وذلك لأنه لا يخفى على أحد من العقلاء أن هذه المعارضة أخف من الحروب التى خاضوها ضده ، بل إن العلم بذلك من الضرورة [1] .

---

(١) أبو الحسن أحمد الهارونى : إثبات نبوة النبى ص ٥١ - ٥٧

ومما سبق يتبين لنا تعذر معارضة القرآن ، وهذا يثبت أنه معجز ، وذلك لأن المعجز هو ما يظهر على بعض الناس مما يتعذر الإتيان بمثله على جميع البَشر ، لحسنه أو لصفة تخصه ، فإذا ثبت ذلك ، ثبت أن الإتيان بمثل القرآن قد تعذَّر على جميع البَشر ، وثبت أنه معجز [1] .

وأيضاً وقوع القرآن منذ البداية على نحو غاية فى الإتقان والإحكام منذ البداية ، ولو كان من عند البَشر لكان الإحكام والإتقان متدرجاً ، يزيد بزيادة التحصيل للعلوم ، فكلما زاد التحصيل زادت قوة الإتقان ، وهذا ما يحدث فى كل العلوم ، وهذا يؤكد أنه معجزة .

وعلى هذا فالقرآن هو المعجزة التى كانت دليلاً على صدق دعوى النبى ﷺ ، وتحدى بها جميع البَشر أن يأتوا بمثله ، ومن بينهم قومه أهل الفصاحة والبلاغة .

وسوف نحاول فيما يلى أن نتأمل فى تلك المعجزة الكبرى ، فنعرض لبعض وجوه الإعجاز فيها ، حيث إن عطاء تلك المعجزة متجدد ومستمر ولا حدود له ، ولقد أولاها المسلمون كثيراً من العناية والبحث ، بل لقد دفع الحماس الدينى بعضهم إلى المغالاة فى القول بوجوه الإعجاز فى القرآن .

وفيما يلى سوف نلقى الضوء على هذا كله وغيره من الأمور المتصلة بوجوه الإعجاز فى القرآن الكريم .

* *

٣- وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم

قبل الخوض فى عرض وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم نود أن نلفت النظر إلى عدة أمور تتصل بموضوع الإعجاز ، وسوف نذكرها فى عدة نقاط هى :

---

(١) المرجع السابق ص ٥٨ - ٧٨

النقطة الأولى : يُعَد القرآن الكريم المصدر الأول للدين الإسلامى ، ومنه استقى المسلمون معارفهم ، وعليه قامت علومهم الميتافيزيقية والأخلاقية والتشريعية [١] .

واعتمد عليه المفكرون الإسلاميون بمختلف نزعاتهم واتجاهاتهم ونشاطهم .

فلقد حاول المتكلمون وعلماء اللغة والفقهاء والمحدِّثون والمفسِّرون والفلاسفة والصوفية وغيرهم أن يجدوا سنداً لهم من القرآن الكريم لعلومهم وأبحاثهم التى اشتغلوا بها .

فالقرآن لم يضع أساس الدين والأخلاق والحياة المثالية فحسب ، بل أيضاً استقى منه المسلم اللغة والعلوم والعقيدة والتشريع [٢] .

وفى العصر الحديث نجد الإمام محمد عبده ، قد جعل الدين أساس الإصلاح ، فمن خلال تفسيره للقرآن الكريم ربط حركة الإصلاح بالدين ، وجعل القرآن والفهم الصحيح له نقطة انطلاق لشتَّى نواحى الإصلاح [٣] .

لعل هذا يشير إلى عناية المسلمين بالقرآن عناية فائقة ، ولقد حاول أصحاب كل علم أن يجدوا له سنداً ومبرراً من القرآن ، ليضفوا على علمهم المشروعية ، وأنه مأمور به من القرآن ، وأنه نبَّه عليه ، بل يجعلون من القرآن دليلاً على موضوعات علومهم .

لكن إذا جاز هذا لبعض العلوم فهل يجوز لكل العلوم ؟ قد يجوز ذلك بالنسبة

---

(١) Seyyed Hossein : Ideals and realities of Islam , p. 50 .

(٢) Hitti , Philip : Islam Away of life , P. 27 .

(٣) انظر على سبيل المثال تفسير المنار وتفسير جزء عم للإمام محمد عبده ، فضلاً عن بعض مؤلفاته الأخرى .

وانظر أيضاً : Hourani Albert : Arabic thought in the liberal age .

وأيضاً : Al. Sharqawi Effat : " Moderncivilization and Quranic Interpretation in Muhammd Abdoh's thought, Arab Jaurnal vol IV, No 2-4 (Fall, 1966 -1967).p.-412

للعلوم الشرعية كالحديث والتفسير والفقه وأصوله وغير ذلك من العلوم الشرعية ، وكذلك العلوم اللغوية التى تتصل بتلك العلوم .

لكن العلوم التجريبية فى تفصيلاتها لا تتصل بالقرآن ، وهذا الفهم نجده عند أوائل علماء المسلمين التجريبيين ، الذين لم يُقحموا القرآن فى تفصيلات تلك العلوم ، وفهموا الفهم الصحيح أن القرآن يحث على العلم دون أن يكون كتاباً فى تفصيلات العلوم .

❊

النقطة الثانية : أنه إذا كان القرآن قد احتوى على كثير من الآيات الكونية ودعا إلى النظر والتأمل فيها ، ودعا إلى العلم الطبيعى ، إلا أنه كتاب عقيدة وليس كتاباً فى العلم الطبيعى ، لذا فإن من غير المعقول أن ننشد تفاصيل العلوم فى القرآن (١) .

بل إن خير ما يُطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم أن يحث على التفكير ولا يتضمن حكماً يشل حركة العقل فى تفكيره ، وكل هذا مكفول للمسلم فى القرآن لأنه يجعل التفكير السليم والنظر الصحيح إلى آيات خلقه وسيلة من وسائل الإيمان بالله (٢) .

ومن هنا يكون من الخطأ أن يُطلب من كتاب العقيدة أن يطابق مسائل العلم ، وذلك لاختلاف طبيعة كتاب العقيدة وطبيعة العلم .

فكتاب العقيدة ثابت لا يتغير ، وهو وحى الله تعالى إلى البَشر ، أما العلم فمتغير غير ثابت ، فالنظريات العلمية فى تغيير ، وهى تتوقف على مجهودات الإنسان ومحاولاته .

وإذا ربطنا القرآن بالنظريات العلمية ، فإننا بذلك نجعل تلك النظريات مقياساً

---

(١) Seyyde Hossein ; : Ideals and relaities of Islam, p. 50 .

(٢) العقاد : الفلسفة القرآنية ص ١٢

لصحة العقيدة ، وهذا خطأ كبير ، إنما حسب العقيدة الصالحة أنها تنهض بالعقل ولا تصده عن العلم [١] .

وإذا كان القرآن يدلنا على بعض الحقائق العلمية ، فإن الحقيقة ثابتة ولا تتغير ، أما النظريات العلمية فهى فى تغير مستمر .

❊

النقطة الثالثة : أن القرآن نص مقدس لا يُقارَن بأى شكل من أشكال كتابة البَشر ، إنه رسالة إلهية بلغة بَشرية ، فهو لا يشبه مصنفات المنطق والتصوف ، لكنه يحوى التصوف والمنطق ، وإنه ليس شعراً ، ومع ذلك فهو يحوى أقوى الشعر وأعظمه [٢] .

وهذا يعنى خلوص القرآن من قيود الشعر والسجع ، فهو لهذا يوحى إلى حد كبير بتفكير منهجى فى المسائل التى يتناولها ، صراحة أو رمزاً أو إشارة [٣] .

وعلاوة على ذلك ، فإن لغة القرآن تغاير لغة الفلسفة ، فمصدر لغة القرآن الوحى الإلهى ، وهو ثابت غير متغير ولم يطرأ عليه تغيير أو تحريف .

أما لغة الفلسفة فهى متغيرة ، وذلك لأنها تختلف موضوعاً وغاية ومنهجاً ، والفلسفات متنوعة ، وأصحاب كل فلسفة يستخدمون لغة تلائم التعبير عن أفكارهم ، ولا يتقيدون فيها إلا بما يرون أنه يساير المنطق ويتمشى مع العقل ، وعلى هذا فإن لغة القرآن فى ثباتها وعدم تطورها تختلف عن لغة الفلسفة التى تتطور مع تطور الفلسفة واتجاهات أصحابها .

فلسفة القرآن الكريم لا تعارض بين معانيها ومنطق العقل ، ولكنها بمعانيها لا تشكل فى نهاية المطاف كتاباً فى المنطق أو فى غيره من العلوم ، إن الهدف الذى ترمى إليه هو هداية البشر وليس وضع أسس العلم أو الفن أو الفلسفة [٤] .

❊

---

(١) العقاد : الفلسفة القرآنية ص ٦ وأيضاً ص ١٧٤

(٢) Seyyed Hossein : Ideals and realities of Islam P. 47 , 48 .

(٣) الدكتور محمد يوسف موسى : القرآن والفلسفة ص ٥٢ - ٥٣

(٤) الدكتور توفيق الطويل : قضايا من رحاب العلم والفلسفة ، البحث الرابع : بين لغة القرآن الكريم ولغة الفلسفة ص ١٥٥ - ١٩٤

النقطة الرابعة : كل ما سبق أن ذكرناه ينقلنا إلى وظيفة القرآن الأساسية ، فما هى تلك الوظيفة ؟

لقد حُدِّدت الوظيفة الدينية للقرآن فى فاتحته ، وهى أول سورة منه ، فقال تعالى : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (١) .

فالمراد من القرآن هو هداية البشر إلى صراط مستقيم ، والكتاب يُقرأ من فاتحته ، فهى التى تحدد المقصود منه ، وتبين الغرض الذى يريد تحقيقه ، وقد توالت سور القرآن بعد الفاتحة ، فسارت فى هذا الغرض الذى حُدِّد فيها ، ولم تحد سورة منها عنه ، وبهذا تشابهت سوره فى أغراضها ومقاصدها ، كما تشابهت أوامره ونواهيه وما إليها مما اشتمل عليه .

فلم تعن سورة من سور القرآن بتدوين تاريخ الخلق مثلاً ، أو تاريخ شعب من الشعوب ، أو رسول من الرسل ، فتسن فى هذا أسلوباً تاريخياً يُقصد منه الاطلاع ومعرفة الأخبار ، ويراد منه الكشف عما يجهله الناس منها ، لأن هذا ليس فى شئ من وظيفة الكتب السماوية ، ولا يتوقف أمره على تنزيل سماوى ، حتى ينزل به وحى من عند الله تعالى ، وإنما هو أمر فى متناول البَشر ، يصلون إليه بعقولهم ، ويعرفونه باجتهادهم وبحثهم .

خلاصة القول : إن القرآن يقص علينا أخبار الأمم الماضية ، لنستخلص منها العظة الدينية التى تدخل فى وظيفته ، وليكون منها تذكرة نافعة لنا فى دنيانا وأخرانا (٢) .

❊ ❊

---

(١) سورة الفاتحة كاملة . (٢) عبد المتعال الصعيدى : النظم الفنى فى القرآن ص ٣٧ - ٣٨

إن هذه النقاط التى قدَّمنا بها للبحث عن وجوه الإعجاز فى القرآن تُعَد نقاطاً أساسية وجوهرية ، وذلك لأنها تحدد لنا طبيعة الإعجاز ومفهومه ، وحتى لا نغالى فيه ونرد إلى القرآن كل شئ ، وفى هذا ضرر كبير بالحقيقة الدينية ، وإدخال للشك فى قلوب المؤمنين ، إذ أن فى ذلك إلحاق أشياء متغيرة غير ثابتة ، وضم مهام ووظائف ليست من مهمة القرآن ووظيفته .

ولا تقلل هذه الملاحظات من إعجاز القرآن ولا تحد منه ، بل على العكس من ذلك ، تحاول أن تضع الإعجاز فى موضعه الصحيح ، بعيداً عن كل نظرات المغالاة والتى تُقوِّض فكرة الإعجاز من أساسها .

وفى الحقيقة إن الذى دعانا إلى ذكر تلك النقاط ، إنما هو دعاوى البعض من الذين يغلب عليهم الحماس الدينى ، ويطغى شعورهم الدينى على عقليتهم العلمية وتحصيلهم العلمى ، فيُلحقوا القرآن بالعلم ونظرياته ، ويتشدقون - على حسن الظن منهم - بأن مكتشفات العلم المتلاحقة والمتجددة موافقة لما جاء به القرآن .

ولسنا نكرر خطأ ذلك الموقف ، إنما نقرر أن تلك المغالاة هى التى دعتنا إلى أن نحتاط ونحذر - فى الحديث عن إعجاز القرآن - أن نُلحق به ما هو ليس منه ولا يختص به ، وليس جوهرياً فيه .

وسوف نتحدث فيما يلى عن بعض وجوه الإعجاز التى تضمنتها معجزة القرآن .

وليس فى وسعنا أن نتحدث عن كل وجوه الإعجاز ، فهذا وحده يحتاج إلى كتابات مستقلة ، كذلك لن نتحدث بالتفصيل ، لأن ذلك يخرج عن الحد المطلوب لهذا الكتاب ، لذا سوف نتحدث بإيجاز عن بعض وجوه الإعجاز .

وسوف نهتم بصفة خاصة بالإعجاز من ناحية مضمون الرسالة ذاتها ، حيث إن هذا المضمون يفوق كل قدرات البَشر ، ولا يتسنى لهم مجتمعين أن يأتوا بمثله ، وهذا الجانب من الإعجاز هو الذى نحتاجه فى كل عصر ، وتقع على الإنسان مسؤولية إدراك ذلك الوجه من الإعجاز القرآنى .

* * *

أولاً : الإعجاز اللُّغوى والبلاغى

لقد سحر القرآن العرب ، وسلب عقولهم ببيانه ونظمه ، وروعة معانيه الخالدة ، وهز النفوس منذ نزول آياته الأولى إلى أن اكتملت سوره ، وكان الإعجاز هو روحه الخفية ، تسرى فى قارئه ، فينبعث فيه الإقرار النفسى بأنه كتاب إلهى أبدعته القُدرة الإلهية ، وأن قوى الإنسان عاجزة عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (١) .

ولعل من أهم وجوه الإعجاز هو الإعجاز اللُّغوى ، وذلك لأن القرآن قد تحدى أن يأتوا بمثله أو بسورة منه ، وذلك لأنه بلغ حداً فى بديع النظم وجودة التأليف وقمة البلاغة والفصاحة ، يصعب مجاراته أو الإتيان بشئ من مثله ، لأنه فى كلمة موجزة واحدة : إنه معجزة .

وسوف نشير فيما يلى إلى بعض وجوه الإعجاز اللُّغوى :

١ - خصائص أسلوب القرآن :

الأسلوب هو الطريقة التى ينتهجها الكاتب فى اختيار ألفاظه ، وتأليف كلامه ، ليوضح بها أفكاره ، ويبلغ بها مراده من التأثير (٢) .

وسوف نشير فيما يلى إلى بعض خصائص الأسلوب القرآنى الذى يفوق حدود الطاقة البَشرية فى التعبير ، الذى يجد صعوبة فى اختيار الألفاظ المناسبة والأسلوب الأنسب :

(أ) أن أسلوب القرآن هو نسق بديع خارج عن المألوف والمعروف من نظام جميع كلام العرب ، وطريقته التعبيرية تخالف طريقتهم ، والتى تنحصر فى أن تكون نظماً أو نثراً ، ولكل قواعده ، لكن أسلوب القرآن لا يتقيد بقواعد النظم أو النثر ، ولقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

والقرآن كان له أداته الخاصة فى التعبير والتى تخرج عن تلك المقاييس للشعر والنثر ، فمن أداته التصوير الفنى .

---

(١) عمر السلامى : الإعجاز الفنى فى القرآن ص ٥٢

(٢) بغدادى بلقاسم : المعجزة القرآنية ص ١٠١ - ١١٥ ، ولقد أشار المؤلف إلى الخصائص المميزة لأسلوب القرآن .

« التصوير هو الأداة المفضَّلة فى أسلوب القرآن ، فهو يُعبِّر بالصور المحسوسة المحسَّة المتخيلة عن المعنى الذهنى ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنسانى والطبيعة البَشرية ، ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى ، وإذا الطبيعة البَشرية مجسَّمة مرئية ، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل ، فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظَّارة ، وحتى ينقلهم إلى مسرح الحوادث الأول ، الذى وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ، وينسى المستمع أن هذا الكلام يُتلَى ، ومثل يُضرب ، ويتخيل أنه منظر يُعرض ، وحادث يقع . . .

فإذا ما ذكرنا أن الأداة التى تصور المعنى الذهنى والحالة النفسية ، وتشخص النموذج الإنسانى أو الحادث المروى ، إنما هى ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصور ، ولا شخوص تعبر ، أدركنا بعض أسرار الإعجاز فى هذا اللون من تعبير القرآن » [1] .

(ب) التعبير القرآنى يسير على نسق واحد من السمو فى جمال اللَّفظ ، وعمق المعنى ودقة التركيب ورقة الصياغة وروعة التعبير ، رغم تناوله لموضوعات مختلفة من التشريع والقصص والمواعظ ، والوعد والوعيد .

فعلى الرغم من تناول هذه الموضوعات المتنوعة فى أغراضها ومجالاتها ، فإن التعبير القرآنى عنها جميعاً على مستوى واحد من البيان الرفيع .

فأنت تقرأ آيات منه فى الوصف ، ثم تنتقل إلى آيات أخرى فى القصة وتقرأ بعد ذلك مقطعاً فى التشريع وأحكام الحلال والحرام ، فلا تجد الصياغة خلال ذلك إلا فى أوج رفيع عجيب من الإشراق والبيان .

وهذه الروح لم تُعرف قط فى كلام عربى غير القرآن وبها انفرد نظمه [2] .

---

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ص ٣٦ - ٣٧

(٢) الدكتور محمود السيد شيخون : الإعجاز فى نظم القرآن ص ٦٨ - ٧٠ ، الباقلانى : فى إعجاز القرآن ص ٣٦ وما بعدها ، الماوردى : أعلام النبوة ص ٧٨ - ٧٩

(جـ) خطاب العامة والخاصة ، حيث إن معانيه مصوغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافاتهم وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم ، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم .

فالعامة والخاصة يجدون مطلبهم فى القرآن ، ويجدون ما يقنعهم وترتاح إليه عقولهم ، وعلى سبيل المثال ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (١)

تجد أن العامى يستفيد منها علماً غزيراً ، فوق أنه يستدل منها على قدرته جَلَّ وعَلا على الإعادة ، كما قدر على الإبداع والإنشاء ، ويقرؤها العالِم بدقائق تكوين الإنسان ، والدارس لحياة الحيوان : جرثومة ، فجنيناً ، فموجوداً على ظهر الوجود حياً ، فيرى دقة العلم وصدق الحكاية عن أدق مسائله (٢) .

(د) إقناع العقل وإمتاع العاطفة : النفس الإنسانية فيها قوتان ، قوة تفكير ، وقوة وجدان ، الأولى تنقب عن الحق لمعرفته ، وعن الخير للعمل به ، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما فى الأشياء من لذة وألم ، والبيان التام هو الذى يوفى لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين ، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً .

والقوتان لا توجدان بدرجة واحدة فى الإنسان ، كذلك لا يوجد أسلوب واحد يجمع بين الطرفين ، فذلك الأسلوب لا يوجد فى كلام البَشر ، بل القادر على ذلك وحده هو الله .

« فمَن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذى يجئ من الحقيقة البرهانية الصارمة بما

---

(١) المؤمنون : ١٢ - ١٦ .

(٢) الإمام محمد أبو زهرة : تاريخ الجدل ص ٦٢

يرضى حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين ، ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين ؟

ذلك الله رب العالمين ، فهو الذى لا يشغله شأن عن شأن ، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب بلسان ، وأن يُخرج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان ، وأن يُخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ما تجده فى كتابه الكريم حيثما توجهت ، ألا تراه فى نسخة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة ؟ (١) .

(هـ) لفظة القرآن : صوَّر أحد الباحثين بدقة اللَّفظة القرآنية مبيناً حقيقتها وروعتها وما تحويه من جمال وفن وأثر على النفس ، فقال : « إن دارس لفظة القرآن يلمس روعة ما فيها من الجمال والفن ، وصورة الإبداع التى تشع منها ، وظلال المشاهدة الحية ، وقوة الحركة فيها ، ومقدار ما تملكه من سيطرة على الوجدان والمخيلة ، ومدى إثارتها وتأثيرها على النفس ، وفتح الآفاق ، لتحل اللفظة محل ريشة رسام مبدع ، فتصوِّر بالألوان والخطوط وتنقش فيها الحياة ، ليعيش الدارس على أرضية خصبة تموج بالحركة وبالإثارة وبالتصوير المتنوع » (٢).

ولقد وُضِعت اللفظة القرآنية بدقة فى موضعها فى الجملة ، لا تقديم ولا تأخير كأنها خلقت لذلك خلقاً ، والغاية من دقة الموضع هى الدقة فى الوضوح لتكون جلية أمام الأبصار ، ولتحدد الذهن تحديداً يستوعب المعنى المقصود ، دون زيادة أو تقصير ، ولتحتل فى النفس مكانتها (٣) .

واللفظة القرآنية مختارة بدقة ، وهى بذلك تسهم فى أداء المعنى بدقة ، ويعطى

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ١٠٧ - ١١٠ ولقد أورد أمثلة من الآيات القرآنية تجتمع فيها حجة العقل ورقة العاطفة .

(٢) عمر السلامى : الإعجاز الفنى فى القرآن ص ٧٢ (٣) المرجع السابق ، ص٧٣

القرآن للفظة أوصافاً ليعطيها دقة فى الوصف ، وتتصل دقة الوصف أيضاً بالمعانى النفسية ، لتعرضها حية ، فتستجيب لها النفس وترتاح إليها .

والدقة فى المعنى - بصورة عامة - ناتجة عن الدقة فى الوضع والاختيار والوصف، وبذا تؤدى اللفظة دورها . لكى تعد ذهن القارئ بكل ما تملكه من معنى ، وتعكسه من مغزى ، وتحدده من هدف ، وذلك لتثير النفس والوجدان ، وتحرك العقل [1] .

(و) التكرار ، وفى القرآن نجد نوعان لظاهره التكرار ، أحدهما : تكرار بعض الألفاظ والجمل . ثانيهما : تكرار بعض المعانى كالأقاصيص والأخبار .

والنوع الأول يأتى على وجه التأكيد ، ثم ينطوى بعد ذلك على نكت بلاغية ، كالتهويل ، والإنذار والتجسيم والتصوير ، وللتكرار أثر بالغ فى تحقيق هذه الأغراض البلاغية فى الكلام .

والنوع الثانى - وهو تكرار بعض المعانى - فالغرض منه تحقيق أمرين مهمين هما :

الأول : إنهاء حقائق الدين ومعانى الوعد والوعيد إلى النفوس البَشرية بالطريقة التى تألفها ، وهى تكرار هذه الحقائق فى صور وأشكال مختلفة فى التعبير والأسلوب .

الثانى : إخراج المعنى الواحد فى قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارة ، وبأساليب مختلفة تفصيلاً وإجمالاً ، وتصريف الكلام فى ذلك حتى يتجلى إعجازه ويستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده [2] .

هذه بعض خصائص الأسلوب القرآنى ، وهى تبين أن هذا الأسلوب الذى ينفرد به القرآن أسلوب معجز يفوق تعبيرات البَشر وطرق أساليبهم والتى تعجز عن محاكاته حتى فى أقصر سورة منه .

* *

---

(١) عمر السلامى : الإعجاز الفنى فى القرآن ص ٧٥ - ٨٨

(٢) الدكتور محمود السيد شيخون : الإعجاز فى نظم القرآن ص ٧٣ - ٧٦ ، والإمام أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن ص ١٤٦ - ١٤٩

٢ - النظم :

النظم كما يعرِّفه الجرجانى أنه ليس تأليف الحروف والكلمات كل بحسب مخارجها ، وإنما النظم عنده هو ترتيب المعانى أولاً ثم تأتى الألفاظ لتستوعب هذه المعانى ، والنظم لا بد من أن يخضع لقواعد النحو وأصوله [١] .

فالنظم بذلك هو التطابق بين المعنى القائم فى الذهن واللفظ الدال عليه ، فهى ترتيب المعانى والألفاظ الدالة عليها ترتيباً دقيقاً ، بحيث يتم التطابق بينهما .

لكن هذا التطابق بين المعنى واللفظ الدال عليه ، ليس أمراً سهلاً ميسوراً ، وذلك لأن المعانى والتصورات أسرع إلى الذهن من الألفاظ وقوالب التعبير ، فالألفاظ مهما جاءت منمقة فإنها تعجز فى عامة الأحوال عن اجتثاث حقيقة إحساسات النفس وما يختلج فيها .

أى أن اللغة مهما كانت معبرة تقف عاجزة إلى حد كبير عن التعبير تعبيراً صادقاً وتاماً ومتطابقاً مع الأحاسيس والمشاعر والمعانى .

وإذا أضفنا إلى تلك الصعوبة صعوبة أخرى ، يكون الأمر جد عسير وصعب المرام ، وتلك الصعوبة هى راجعة إلى المتكلم أو الكاتب نفسه ، فمهما أوتى من بلاغة ، وما يحفظ فى ذهنه من مفردات اللغة ، وأوتى علماً بتراكيب اللغة وألوان التعبير ، لكن هيهات أن يتيسر له ذلك كله عند إرادته التعبير ، إنما يلقى حبال تفكيره وذهنه إلى هذا البحر العظيم ليلتقط منه ما تسارع إليه وسهل على لسانه أو عتاد عليه قلمه وفكره .

ولقد عبَّر الباقلانى عن تلك الصعوبة بقوله : « وهو - أى أمر اختيار الكلمة - أدق من السحر ، وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر ، وكيف لا يكون كذلك ، وأنت تحسب أن وضع « الصبح » فى موضع « الفجر » يحسن فى كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجعاً ، وليس كذلك ، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر

---

(١) الدكتور محمود السيد شيخون : الإعجاز فى نظم القرآن ص ٧٣ - ٧٦

فى موضع ، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها ، وتراها فى مظانها ، وتجدها فيه منازعة إلى أوطانها ، وتجد الأخرى - لو وُضِعت موضعها - فى محال نفار ، ومرمى شراد ، ونابية عن استقرار » [1] .

هذه الصعوبات توجد لدى البشر وكلامهم ، أما بالنسبة للقرآن فالأمر مختلف ، فإننا نجد فى لغته اتساقاً وتطابقاً تاماً بين اللفظ والمعنى « فالجديد فى لغة القرآن أنه فى كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد ، وأمسها رحماً بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذَرَّة فى موضعها الذى هو أحق بها وهى أحق به ، بحيث لا يجد المعنى فى لفظة إلا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ فى معناه إلا وطنه الأمين وقراره المكين » [2] .

ولقد أجمعت المعتزلة - إلا النظَّام وهشام الفوطى وعباد بن سليمان - على أن تأليف القرآن ونظمه معجزة .

فلقد قال النظَّام : إن إعجاز القرآن إنما بكون ما فيه من الإخبار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد ، لولا أن الله منعهم بمنع وبعجز أحدثه فيهم .

ولا يعنى قول النظَّام إنكار نظم القرآن بل يعنى - كما ذكر الأستاذ الدكتور أبو ريدة - أن فى رأى النظام هدم لأمل كل مَن تحدِّثه نفسه بالقدرة على المعارضة وجدع لأنف كل متطاول ، وهو أكثر قطعاً عن الإتيان بمثله وأبلغ فى تقرير الإعجاز بلفظه ومعناه [3] .

---

(١) الدكتور محمود السيد شيخون : الإعجاز فى نظم القرآن ص ٦٢ - ٦٥ ، وأيضاً الباقلانى : إعجاز القرآن ص ١٨٤

(٢) الدكتور محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ٨٤ ، والماوردى : أعلام النبوة ص ٧٧

(٣) الأشعرى : مقالات الإسلاميين : ٢٩٦/١ ، وأيضاً الخياط : الانتصار ص ٢٧ ، وأيضاً الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة : إبراهيم بن سيَّار النظَّام وآراؤه الكلامية والفلسفية ص ٣٥ .

ولقد ذكر الباقلانى وغيره ألواناً كثيرة ووجوهاً عديدة لبديع النظم القرآنى وعدم تفاوت جودته ، وأنه يفوق كل أصناف كلام البشر ، ولقد اكتفينا بما ذكرنا كمثال فقط .

❊ ❊

٣ - الفصاحة والبلاغة :

إن القرآن لم يكن معجزاً بمجرد النظم فقط ، بل كان معجزاً باللفظ والفصاحة معاً ، فلقد بلغ فى الفصاحة مبلغاً تجاوز الحد الذى يمكن للبَشر أن يبلغوه .

والفصاحة تعنى الإبانة عن المعنى المقصود بحسن البيان ، وأقسامها عديدة [١] ، وسوف نشير إلى بعضها .

(أ) الإيجاز :

الإيجاز هو استيفاء المعنى فى قليل الكلام ، لقد شرح الرمانى فوائد الإيجاز ومعناه فقال : « الإيجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ، والإيجاز تصفية الألفاظ من الكدر ، وتخليصها من الدرن ، والإيجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ ، والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير » [٢] .

وعلى هذا يمكن أن يقال إن أسلوب القرآن كله إيجازاً ، ولقد كان الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز على حق حينما كتب يقول :

« قلنا إن القرآن الكريم يستثمر برفق أقل ما يمكن من اللفظ فى توليد أكثر ما يمكن من المعانى ، أجل ، تلك ظاهرة بارزة فيه كله ، يستوى فيها مواضع إجماله التى يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله التى يسمونها مقام

---

(١) أبو الحسن أحمد الهارونى : إثبات نبوة النبى ص ٨٨ - ٩٨ ، ولقد ذكر الباقلانى عشرة أقسام للبلاغة : إعجاز القرآن ص ٢٦٢

(٢) الماوردى : أعلام النبوة ص ٦٩ ، والدكتور محمود السيد شيخون : الإعجاز فى نظم القرآن ص ٢٨٠ ، وأيضاً بغدادى بلقاسم : المعجزة القرآنية ص ٢٥٩ - ٢٦٣

الإطناب ، ولذلك نسميه إيجازاً كله ، لأننا نراه فى كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الإسراف ميلاً ما ، ونرى أن مراميه فى كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها ، فليس فيه كلمة إلا هى مفتاح لفائدة جليلة ، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى »[1] .

والإيجاز قد يكون بالحذف أو القصر .

فالحذف : الإسقاط للتخفيف كقوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ [2] .

وحذف الجواب كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ﴾ [3] - كأنه قيل : لكان هذا القرآن .

والحذف أبلغ من الذكر ، لأن النفس تذهب كل مذهب فى القصد من الجواب .

والإيجاز بالقصر مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [4] ، [5] .

❊

(ب) التشبيه :

التشبيه هو أن يكون أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقل [6] .

والمقصود منه إبانة المعنى وتوضيحه وهو على عدة أقسام ، نكتفى بذكر قسمين وردا فى القرآن هما :

تشبيه محسوس بمحسوس : وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [7] .

أى كأنهم حين تقلعهم الريح من الحفر ، وترميهم صرعى ، جذور نخل منقلع

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ١٢١ - ١٢٤ ولقد أورد أمثلة من الآيات القرآنية وأوضح ما فيها من بلاغة الإيجاز .

(٢) يوسف : ٨٢ (٣) الرعد : ٣١ (٤) البقرة : ١٧٩

(٥) الباقلانى : إعجاز القرآن ص ٢٦٢ - ٢٦٣ (٦) المرجع السابق ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤

(٧) القمر : ١٨ - ٢٠

من مغارسه ، ساقط على الأرض ، وشبههم بها ، لأن الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقيهم أجساداً بلا رؤوس ، وكانوا ذوى أجساد عظام طوال فالمشبَّه هنا عاد وهم قوم هود ، والمشبَّه به أعجاز النخل ، وهما حسيان .

تشبيه المعقول بالمحسوس : مثل قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ، لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (١) .

شبَّه ما يعمله الكافرون فى الدنيا من أفعال البر والخير مهما جلَّ وعظم . فى إحباطه وذهابه ، لأنه قائم على غير أساس من الإيمان والإحسان ، وكونه لغير الله وعلى غير أمره ، بهذا الرماد الهش ، الذى لا يصمد أمام قوى الرياح العاتية العارمة فيتلاشى فى جوفها الهادر ، ووجه الشبه عدم ظهور أى أثر للشئ ورجاء نفعه إذا بُنِىَ على أساس واه ، وأقيم على ركن ضعيف (٢) .

❊

(جـ) التلاؤم :

هو نقيض التنافر ، وهو يكون متلاؤم الحروف ، وتلاؤم الحركات والسكنات والمعنى ، فإذا اجتمعت هذه الوجوه ، خرج الكلام غاية فى العذوبة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ (٣) .

فتأمل هذه الألفاظ ، فستجد أن كل كلمة وضعت فى موضعها وضعاً صحيحاً حسناً ، ألا ترى أنه عزَّ وجل لو قال : والكوكب إذا سقط ، أو إذا غرب ، أو قال : إذا أفل ، لم ينب فى الحسن مناب قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ (٤) .

ولو قال : ما زاغ نبيكم عن الهدى ، أو ما أخطأ رسولكم ، أو قال : ما حاد

---

(١) إبراهيم : ١٨

(٢) الدكتور عبد القادر حسين : القرآن إعجازه وبلاغته ص ١١٧ وما بعدها ، حيث أورد أمثلة كثيرة من التشبيهات وأنواعها وأقسامها - ولقد أوردنا اثنين منها على سبيل المثال .

(٣) النجم : ١ - ٣ (٤) النجم : ١ .

الرشد والهدى ، وما أشبه ذلك لم يغن غناء قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ (١) .

« واعلم أن كثيراً من الألفاظ تكون له حلاوة وعذوبة إذا وقع فى بعض المواقع دون بعض ، وإنما حصلت لهذه الآيات العذوبة التامة ، لما حصل لحروفها من التلاؤم ، ولحركاتها وسكناتها من الاعتدال ، ولمعانيها من حسن الاطراد والمقاصد ، لأن الحروف لو لم تتلاءم لكان يحصل للكلام بعض التنافر » (٢) .

فالتلاؤم بذلك حسن الكلام فى السمع وسهولته فى اللفظ ، ولقد شبهه الباقلانى بجود الخط ، وإنه إذا انضاف إليه حسن البيان وصحة البرهان فى أعلى الطبقات - ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع ، وبصيراً بجواهر الكلام (٣) .

وبعد . . فهذه نماذج اكتفينا بإيرادها والإشارة إليها ، وهى توقفنا إلى حد بعيد على مظاهر الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم ، ولم يكن بوسعنا أن نزيد أكثر من هذا ، لأنه تبدو لنا أن مظاهر الإعجاز اللغوى واضحة لا تكاد تحتاج إلى دليل ، بل نحن نحسها عند سماع القرآن وتلاوته ، وتكرار ذلك لا يحدث لدينا مللاً ، بل نحس بتدفق المعانى فى عذوبة ويُسر وجدة باستمرار .

ولقد عدَّ الإمام الخطابى هذا التأثير أحد وجوه الإعجاز « وذلك لصنيعه فى القلوب وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن ، منظوماً ولا منثوراً ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور . . . » (٤) .

ولعل الإعجاز اللغوى يقف على رأس وجوه الإعجاز التى تحدى بها القرآن

---

(١) النجم : ٢ (٢) أبو الحسن أحمد الهارونى : إثبات نبوة النبى ص ١١٤ - ١١٨

(٣) الباقلانى : إعجاز القرآن ص ٢٦٩ - ٢٧٠

(٤) نقلاً عن كتاب بغدادى بلقاسم : المعجزة القرآنية ص ١٥٩

العرب أهل الفصاحة والبيان ، الذين وقفوا عاجزين عن مجاراته أو محاكاته حتى فى أقصر سورة منه .

ولكن ما هو موقف الأعجمى من إعجاز القرآن من جهة الإعجاز اللُّغوى ، وهو لا يعرف العربية ؟

يذهب الباقلانى إلى أن العلم بإعجاز القرآن استدلالى فى حق الأعجمى ، ضرورى فى حق المحيط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة (١) .

ويذكر البغدادى كيفية استدلال العجم على فصاحة القرآن وإعجازه فى النظم بأن العجم إذا علمت أن العرب أهل اللسان عجزوا عن معارضته علموا كونه معجزاً ، كما أن السَحَرَة لما عجزت عن معارضة موسى فى عصاه عرف غيرها وجه الإعجاز فى العصا وإنها ليست بسحر لأنها لو كانت بسحر لعارضته السَحَرَة بمثلها ، كذلك الأعجمى يعلم أن القرآن لو كان من جنس البَشر لقدر على مثله أهل اللغة (٢) .

لكن الإعجاز اللُّغوى لم يكن الإعجاز الوحيد بل هناك وجوه أخرى للإعجاز ، وسنعرض لوجه آخر من وجوه الإعجاز فى ما يلى .

* * *

ثانياً : الإخبار بالغيوب

لقد وردت فى القرآن بعض النبوءات الغيبية ، وأخبار عن حوادث سوف تقع ، ولقد أورد القرآن تلك الأخبار المستقبلية بصورة قاطعة .

ولقد ذكر النبى ﷺ تلك الأخبار وهو واثق من وقوعها ، فهى لم تكن مجرد مصادفة أو تخمين ، بل هى تقرير لما سوف يحدث ، وهو إذ يخبر بخبر القرآن عن المستقبل ، إما أن يكون رجلاً مجازفاً لا يبالى أن يقول الناس فيه : صدق

---

(١) الباقلانى : إعجاز القرآن ص ٢٥٩ - ٢٦١ (٢) البغدادى : أصول الدين ص ١٨٤

أو كذب ، وذلك هو دأب جهلاء المتنبئين من العرَّافين والمنجمين ، وإما رجل اتخذ عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ، وتلك سُنَّة الأنبياء والمرسلين .

فأى الرجلين تراه فى صاحب هذا القرآن حينما يجئ على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع فى أعوام وما سيكون أبد الدهر ، وما لن يكن أبد الدهر ؟

ذلك وهو لم يتعاط علم العرافة والتنجيم ، ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم تمثل الدعوى والتحمل ، ولا كانت أخباره كأخبارهم خليطاً من الصدق والكذب والصواب والخطأ (١) .

ومن هنا كان إنباء النبى ﷺ بخبر القرآن عن الغيب خبر صدق ، ومعجز لأن الخبر عن الغيب على وجه يكون صدقاً على جهة الاستمرار لا يصح إلا من العالِم به ، لأن ذلك لو صح من غير العالِم ، لم يكن الاستدلال بالفعل المحكم المتقن على أن فاعله عالِم .

أى كما لا يصح الفعل المحكم المتسق إلا من عالِم ، كذلك لا يصح صدق الإخبار عن الغيب إلا من عالِم به ، وذلك لأن الخبر الصادق فى حكم الفعل المتقن فى احتياجه إلى أن يكون الفاعل نه عالماً .

وقد يعترض بعض المنكرين ، بأنه يختلط عندهم إخبار النبى بالغيب بإخبار الكاهن أو المنجم أو المجنون بالغيب أيضاً .

لكن هذا الاعتراض فى غير محله ، فهناك فرق بين إخبار النبى والكاهن بالغيب ، وذلك لأن الكهان لا يمكنهم الخبر عن تفاصيل الأمور على الاستمرار على وجه يكون صدقاً ، وهذا معروف من أحوالهم ، لأنهم يقولون بأمور تعرض لهم ، وبأمارات تظهر لهم ، وإن أصاب الواحد منهم فى شئ فهو على سبيل الاتفاق ، ويخطئون فى أشياء يظهر فيها كذبهم ، أى أن صدقهم فى بعض

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ٣٣ ، ٣٤

الحالات يكون عن طريق المصادفة ، وفى الأغلب الأعم هم كاذبون ، وقد يكون ما يخبرون به على سبيل العادة ، ويحدث عن طريق المصادفة أن يتحقق بعض ظنهم ، لكن ما ورد من أخبار الغيب فى القرآن ليس من هذا الطريق [1] على نحو ما سنعرض له من أمثلة فيما يلى :

لقد وردت بعض البشارات المؤكدة فى القرآن الكريم ، فعلى سبيل المثال -لا الحصر - قوله تعالى مؤكداً حفظ القرآن نفسه فيقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [2] وغيرها من الآيات المتعلقة بمستقبل الكتاب والعقيدة ، ولقد جاءت هذه الآيات فى مكة وفى بداية الدعوة حيث كان الإعراض والصد ، وتعذيب القِلَّة التى آمنت ، واضطهادهم ومقاطعة ومحاصرة فئة المؤمنين .

فهل للمرء أن يلمح فى ثنايا هذا الليل الحالك الذى طوله عشرة أعوام شعاعاً ولو ضئيلاً من الرجاء أن يتنفس صبحه عن الإذن لهؤلاء المظلومين برفع صوتهم وإعلان دعوتهم ؟ ولو شام المصلح تلك البارقة من الأمل فى جوانب نفسه من طبيعة دعوته ، لا فى أفق الحوادث ، فهل يتفق فى مثل هذه الظروف أن يربو فى نفسه الأمل حتى يصير حكماً قاطعاً ؟ وهبه امتلأ رجاءً بظهور دعوته فى حياته ما دام يتعهدها بنفسه ، فمَن يتكفل له بعد موته ببقاء هذه الدعوة وحمايتها وسط أمواج المستقبل العاتية ؟

لا شك أن المتكفل بذلك كله هو الله تعالى الذى أنزل الذكر وضمن له البقاء .

أيضاً التحدى بالإتيان بمثل القرآن وتعجيز العالم كله عن الإتيان بمثله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [3] .

إن هذا النفى المؤكد ، بل الحكم المؤبد الصادر عن الله تعالى ، باق على مرِّ العصور ، بأنه لا مخلوق فى قدرته الإتيان بمثل القرآن .

---

(١) أبو الحسن بن أحمد الهارونى : إثبات نبوة النبى ص ١٣٣ - ١٣٧

(٢) الحجر : ٩ (٣) الإسراء : ٨٨

وأيضاً الآية التى يضمن الله بها لنبيه حماية شخصه والأمن على حياته حتى يُبلِّغ رسالات ربه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (١) .

« إن هذا وأيم الله ضمان لا يملكه بشر ، ولو كان ملكاً محجباً تسير الحفظة من بين يديه ومن خلفه ، فكم رأينا ورأى الناس من الملوك والعظماء مَن اختطفتهم يد الغيلة وهم فى مواكبهم تحيط بهم الجنود والأعوان ، ولكن انظر مبلغ ثقة الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الوعد الحق ، روى الترمذى والحاكم عن عائشة ، وروى الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى قال : كان النبى يُحرس بالليل ، فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : « يا أيها الناس ؛ انصرفوا فقد عصمنى الله».

ولقد وردت الكثير من البشارات فى نصر المؤمنين على أعدائهم ، أو غلبة الروم وغير ذلك من العهود الموثقة ، ولقد اكتفينا بعرض نماذج منها فقط (٢) .

ويرى البعض أن الإعجاز عن طريق الإخبار بالغيب ، لا يقتصر على الأحداث التى سوف تقع فى المستقبل ، بل يشمل أيضاً الإخبار عن الماضى ، حيث جاء القرآن بأخبار الأنبياء السابقين وأممهم على لسان النبى وهو أُمِّى لا يقرأ ولا يكتب ، وكذلك فى مجتمع أُمِّىٍّ لا يعرف شيئاً عن أخبار الأنبياء السابقين وما حلَّ بأممهم ، فلقد كانت تلك الأخبار بالنسبة إليهم غيب لا يعرفون عنه شيئاً ، وهذا دليل قاطع على أن القرآن من عند الله (٣) .

* * *

ثالثاً : مضمون الرسالة

سبق أن أشرنا أن فى معجزة القرآن يتحد الدليل والمدلول ، فهو نفسه الوحى المدعى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهده فى عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى ، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه .

---

(١) المائدة : ٦٧ (٢) الدكتور محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ٣٣ - ٤٧

(٣) الإمام محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن ص ٣١١ - ٣١٥

وهذا يعنى أن الرسالة نفسها معجزة ، لذا يجب أن نتأمل مضمونها وندرك إعجازها ، وليس بوسعنا فى مثل هذه الصفحات أن نتعرض بالتفصيل لمضمون الرسالة ، بل إن الإشارة - فى هذا المقام - فيها الغنى والكفاية عن ذكر التفاصيل ، وهى الشئ الممكن ذكره فى هذا المقام .

بادئ ذى بدء نقول إن المتأمل لمضمون الوحى « القرآن » يجد بناءً متكاملاً لرسالة هادية للإنسان فى حياته الدنيوية والأُخروية ، أى أنها أعطت الإنسان نموذجاً فريداً فى العقيدة والسلوك ، وذلك عمل الرسالة ذاتها .

إلى هذا المعنى أشار الرازى مؤكداً أن هذا الطريق هو أكمل الطرق وأثبتها وأكثرها قوة ويقيناً فى إثبات النبوة .

فهو يرى أن كمال حال الإنسان يكون فى معرفة الحق والعمل به ، والنبوة الصادقة هى التى تحقق ذلك للإنسان ، والنبى وحده هو القادر على قيادة الإنسانية إلى ذلك المرفأ الآمن المطمئن .

ويبرهن على ذلك بأن عامة الناس ناقصو المعرفة والعمل ، وأن منهم الكاملين ، لكن هؤلاء - وهم الأولياء - لا يقدرون على إصلاح غيرهم ، وصنف ثالث قليل عددهم كاملين وأذكياء وقادرين على إصلاح غيرهم ، وهم الأنبياء .

ويحاول الرازى أن يبرهن على ذلك ، فيذكر أن النقص وإن كان واقعاً ، إلا أن فى الناس لا بد من وجود شخص كامل بعيد عن النقصان ، وهو النبى ، والذى يشهد على ذلك تفاوت الناس فى الكمال والنقصان ، فلا بد من وجود مرتبة يوجد عندها أفضلهم وأكملهم .

كذلك تفاوت الجسم العنصرى فى المرتب ، من معدن ونبات وحيوان ، والعقل يشهد بأن أشرف هؤلاء الثلاثة الحيوان ، وأوسطها النبات ، وأدونها المعادن .

ويورد أدلة أخرى على وجود التفاوت فى الكمال والنقص فى الوجود الإنسانى والوجود الحسى ، وذلك كله ليبرهن على ضرورة وجود الموجود الكامل - وهو النبى - وهو أكمل الكاملين .

فبعد مقدمات طويلة ينتهى إلى القول : « مرض النفوس الناطقة شيئان : الإعراض عن الحق ، والإقبال على الخلق ، وصحتها شيئان : الإقبال على الحق ، والإعراض عن الخلق ، فكل مَن دعا الخلق إلى الإقبال على الحق والإعراض عن الخلق فهو النبى الصادق » (١) .

لكن كيف يحقق النبى ذلك ؟ إن الإجابة فى عبارة واحدة إن لم تكن كلمة ، إنه يحققها عن طريق القرآن الذى أوحى الله به إليه ، ذلكم القرآن الذى هو معجزة ، لأنه تضمن عقيدة واضحة ، ودستوراً أخلاقياً ، ونظرة شمولية للكون والحياة .

ولقد أدرك الرازى ذلك فعقب على قوله السالف الذكر بعدة فصول بيَّن فيها أن القرآن العظيم يدل على أن هذا الطريق هو الأكمل والأفضل فى إثبات النبوة .

وسوف نحاول فى هذه الصفحات أن نشير بإيجاز إلى الملامح العامة لمضمون الرسالة التى تضمنها القرآن باعتباره كتاب هداية للبَشر ، وذلك فى معظم الجوانب والمجالات التى أشار إليها القرآن .

ومضمون الرسالة - كما سبق أن أشرنا - هو المعجزة ، وعلى ذلك فإننا عندما نعرض لجوانب المضمون ، فإن ذلك يعنى أيضاً ذكر لوجوه الإعجاز - لذا كما سبق أن ذكرنا فى مقدمة الحديث عن إثبات النبوة ، أن المعجزات تقف وراء طرق إثبات النبوة بل إن طرق الإثبات إنما هى - بمعنى من المعانى - وجوه للمعجزات .

وسوف نعرض فيما يلى لبعض وجوه مضمون الرسالة ، ونبدأ بجانب العقيدة .

(أ) العقـــــيدة :

لقد أرسى القرآن قواعد العقيدة واضحة ثابتة ، فقرر وجود إله واحد خالق لهذا العالم وموجده ، وإليه يرجع الأمر وإليه المصير ، وأنه موجود فى الأزل وسيبقى

---

(١) الرازى : النبوات ص ١٧٥ - ١٧٦

فى الأبد ، وأنه منزَّه عن مماثلة الممكنات ، وأنه موصوف بصفات الكمال ، وهى القدرة المطلقة النافذة فى جميع الممكنات ، والعلم السارى فى جميع المعلومات ، والوحدانية المطلقة ، بمعنى كونه منزَّهاً عن الأجزاء والأبعاد ، والفردانية المطلقة منزَّهاً عن الضد والند والصاحبة والولد .

والقرآن لا يقرر تلك الحقيقة بطريقة تعسفية ، ولم يطالب الإنسان بمجرد التسليم الأعمى لها ، بل أخذ بيد الإنسان للوصول إلى الحقيقة ، أما ما يفوق قدرة العقل الإنسانى فلقد طالبه بالتسليم به .

وإذا أردنا أن نشير بإيجاز إلى منهج القرآن فى إثبات تلك الحقيقة فنراه يستند على الواقع الحسى المشاهد ، ثم تجاوز ذلك المحسوس إلى المعقول ، وقد يتضح ذلك المنهج بصورة أوضح فى حث القرآن للإنسان أن يبحث فى عالم الطبيعة وفى عالم النفس ، ليدرك أن له خالقاً وموجداً له كل صفات الكمال . يقول الله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

ففى هذه الآية دعوة إلى عالم الحس والاستشهاد به ، وتنجلى منها النظرة الواقعية ، وهذه الروح التجريبية - فيما يرى المفكر الإسلامى محمد إقبال - هى فى مقابل الروح التجريبية والبحث النظرى المجرد فى الفلسفة اليونانية (٢) .

والقرآن يبعد فى إيراد أدلته عن الطريقة الجدلية ، لأن ذلك الطريق يفتح أبواب الأسئلة والأجوبة والاعتراضات والمشاغبات والمجادلات ، ولا يوصل إلى المقصود.

ويورد القرآن أدلته البرهانية اليقينية مخلوطة بطريقة الخطابة من الترغيب والترهيب ، وبسبب ما فيه من طريقة الخطابة يكون تأثيره فى القلوب أكمل ، وبسبب ما فيه من قوة المقدمات البرهانية بقى مستعظماً فى العقول (٣) .

وعلى سبيل المثال نورد نموذجاً لمسالك القرآن البعيدة عن الصياغات الفنية المعقدة وخاطب فيها الفطرة الإنسانية .

---

(١) فصلت : ٥٣ (٢) محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ١٤٦

(٣) الرازى : النبوات ص ١٨٤

فأحياناً يرد القرآن المجادل إلى حقائق بديهية ، فيقرر عن طريق الاستفهام أموراً يُسلِّم بها الخصم وتُسلِّم بها العقول ، كالاستدلال بالخلق على وجود الخالق ، فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (١) .

يقول جبير بن مطعم : لما سمعت هذه الآية أحسست بفؤادى قد انصدع ، فإن هذا تقسيم حاصر يقول : « أخلقوا من غير خالق خلقهم ؟ فهذا ممتنع فى بدائة العقول ، أم خلقوا أنفسهم ؟ فهذا أشد امتناعاً ، فعُلِمَ أن لهم خالقاً خلقهم وهو الله سبحانه .

وقد ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه القضية التى استدل بها فطرية بديهية مستقرة فى النفوس لا يمكن لأحد أن ينكرها ، فلا يمكن لصحيح الفطرة أن يدَّعى وجود حادث بدون محدث أحدثه ، ولا يملك أن يقول هذا أحدث نفسه (٢) .

ويذكر الرازى أن أحسن الطرق فى دعوة الخلق إلى عبودية الحق ، هو ما جاء فى القرآن من تعظيم الله تعالى من جميع الوجوه على سبيل الإجمال ، ويمنع من الخوض فى التفصيل .

فيذكر فى إثبات التنزيه قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ (٣) وإذا كان غنياً على الإطلاق ، امتنع كونه مؤلفاً من الأجزاء ، وإذا كان كذلك ، امتنع أن يكون متحيزاً ، وإذا كان كذلك ، امتنع أن يكون حاصلاً فى الأمكنة والأحياز .

وأيضاً بالغ فى تقرير كونه عالماً بجميع المعلومات ، فقال تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (٤) ، ولم يخص القرآن فى بيان أنه عالِم لذاته أو أنه عالِم بعلم .

وأيضاً بيَّن كون العبد فاعلاً وعاقلاً وصانعاً وخالقاً ومحدثاً فى آيات كثيرة، ثم

---

(١) الطور : ٣٥
(٢) السيوطى : صون المنطق ص ٣١٠
(٣) محمد : ٣٨
(٤) الأنعام : ٥٩

يبَّن فى سائر الآيات ، أن الخير والشر كله من الله تعالى ، ولم يُبيِّن أنه كيف يجمع بين هذين القولين ، بل أوجب الإيمان بهما على سبيل الإجمال .

وأيضاً بيَّن أنه لا يعزب شئ عن مشيئة الله تعالى وإرادته وقضائه وتقديره شئٌ البتة ، ثم بيَّن أنه لا يريد الظلم والعبث والباطل ، ولا يفعله .

فالحاصل : أن طريقة نبينا فى الدعوة هى تعظيم الله تعالى من جميع الجهات المعقولة ، والمنع من الخوض فى بيان تلك الجهات هل تتناقض أم لا ؟!

فإنَّا إن قلنا القبائح من أفعال العباد ، وحصلت بتخليق الله تعالى ، فقد عظَّمناه بحسب القدرة ، لكن ما عظَّمناه فى الحكمة ، وإن قلنا إنها ليست من الله تعالى ، فقد عظَّمناه بحسب الحكمة ، ولكن ما عظَّمناه بحسب القُدرة .

وأما القرآن فإنه يدل على تعظيم الله تعالى بحسب القُدرة وبحسب الحكمة معاً فقال فى الأول : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ ﴾ (١) . وقال فى الثانى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ (٢) .

ثم منع الناس أن يخوضوا فى تقرير هذا التعارض وفى إزالته ، بل الواجب على العوام : الإيمان المطلق بتعظيم الله تعالى فى القُدرة والحكمة .

وفى الحقيقة . . فالذى قاله هو الصواب ، فإن الدعوة العامة لا تُنظَّم إلا بهذه الطريقة (٣) .

ولقد كان ابن رشد على حق ، عندما طلب أن نسكت عما سكت عنه القرآن ، إذ أن ذلك أجدى فى حق إيمان عامة الناس ، والقرآن - كما سبق أن ذكرنا - موجه للعامة والخاصة معاً ، وعلاوة على ذلك فإن هناك أموراً لا سبيل للعقل إلى إدراكها .

وهكذا يبين القرآن فى وضوح وبساطة أمر العقيدة من وجود إله قادر عالِم له

---

(١) النساء : ٧٨ (٢) النساء : ٧٩

(٣) الرازى : النبوات ص ١٨٥ - ١٨٧

سائر صفات الكمال ، ويرد الإنسان إلى فطرته وإلى نفسه ليتبين حقيقة وجوده ووجود العالَم ، وفى ذلك أكمل برهان وأتم يقين على وجود خالق له ومدبر للكون .

وبنفس الوضوح والتميز يتحدث القرآن عن العالَم الآخر ، وهو البعث وما فيه من جزاء ، ويعرض مشاهد ذلك العالَم بأسلوب فريد متميز ، وتصوير دقيق .

« لقد عَنِىَ القرآن بمشاهد القيامة : البعث والحساب والنعيم والعذاب ، فلم يعد ذلك العالَم الآخر الذى وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر ، موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوَّراً محسوساً ، وحياً متحركاً ، وبارزاً شاخصاً ، وعاش المسلمون فى هذا العالَم عيشة كاملة : رأوا مشاهده ، وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم تارة ، وسرى فى نفوسهم الفزع مرة ، وعاودهم الاطمئنان أخرى ، ولفحهم من النار شواظ ، ورفَّ إليهم من الجنة نسيم ، ومن ثَمَّ باتوا يعرفون هذا العالَم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود .

« هذا العالم بسيط كل البساطة ، واضح وضوح العقيدة الإسلامية : موت وبعث ، ونعيم وعذاب ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الجنة بما فيها من نعيم ، وأما الذين كفروا وكذَّبوا بلقاء الله فلهم النار بما فيها من جحيم ، ولا شفاعة هناك ، ولا فدية من العذاب ، ولا اختلال قيد شعرة فى ميزان العدالة الدقيق : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (١) ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَاخْشَوْاْ يَوْماً لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ (٢) .

« ولكن هذه الحقيقة البسيطة الواضحة تعرض فى صور شتَّى ، وترتسم فى عالَم كامل ، حافل بالمشاهد ، وتتراءى فى عشرات من الأوضاع والأشكال والسمات ، وتؤلف بذلك ملاحم فنية رائعة ، فتملأها النفس ، ويتابعها الخيال ، وليستغرق

---

(١) الزلزلة : ٧ - ٨ (٢) لقمان : ٣٣

فيها الحس ، وتتراءى فيها الظلال ، وتضيف إلى الثروة الأدبية الفنية صفحات مفردة لا شبيه لها ولا مثال » (١) .

لقد عرض القرآن لحقائق هذا العالَم ، بصورة بلاغية مؤثرة فى النفس مراعية لأدق التفاصيل ، ولقد كتب المفكر الإسلامى المعاصر « مالك بن نبى » موضحاً تلك الصورة القرآنية الفريدة وأثرها فى النفس فكتب يقول :

« إن القرآن يبرز هذا المجال الأخروى إبرازاً مؤثراً ، فلقد قُصَّت فيه رواية الخلود بنبرة خاشعة رهيبة ، فى أسلوب فاق الذروة فى بلاغته ، وقد بُثَّت فى أنحائه صور ومشاهد تسكب الخشية فى قلوب العباد ، مما لا يمكن معه لإنسان - حتى فى هذه الأيام - أن يُصرف عن مشاهده الهائلة .

إن مشاهد القيامة فى القرآن ذات حقائق غلابة ، والشخصيات التى تحتويها تتكلم وتتحرك ، فالمَلَك ، والشيطان ، والأبرار ، والأشرار ، كل هؤلاء يتسمون بواقعية لا تغفل أدق التفاصيل النفسية ، ولا تهمل أية كلمة من شأنها أن تذكِّر بأهوال تلك الساعة الرهيبة » (٢) .

وبعد . . هذه إشارات موجزة لطبيعة تصور القرآن لمشاهد وأحداث اليوم الآخر ، وهى - بدقة البيان وروعة التصوير - تزود الإنسان بحقائق عن ذلك العالَم ، الذى هو اعتقاد مغروس فى النفس الإنسانية ، فلقد أدرك الإنسان منذ القدم ، أن حياته قصيرة محدودة ، وأنه لا يتم فيها شئ كامل ، ووجدت لديه فكرة البعث والحياة الآخرة ، والتاريخ القديم يطلعنا على الحضارات القديمة التى أدرك فيها الإنسان فكرة البعث والخلود ، ويقف على قمة تلك الحضارات القديمة الحضارة المصرية ،

---

(١) سيد قطب : مشاهد القيامة فى القرآن ص٣٧ وما بعدها ، وقد عرض فى الكتاب لمشاهد القيامة وأحوالها وما فيها من ثواب وعذاب ، وأوضح التصوير الفنى الدقيق ، وجمال التعبير ورونقه ، والإحساس الظاهر والباطن ، والانفعال الخارجى والداخلى لهذه المشاهد ، وهو من أفضل ما كُتِب فى هذا الموضوع ، فلقد جمع فيه بين دقة الحقيقة وروعة الخيال وجمال التعبير ، وعبَّر بصدق عن تصوير القرآن الدقيق والرائع لهذه المشاهد .

(٢) مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية ص ١٨٨ - ١٨٩

التى فيها أول عقيدة بالحساب بعد الموت على الخير والشر ، وإن كانت فكرة ساذجة فى تلك الحضارات القديمة .

لكننا نجد فى القرآن صورة كاملة وصحيحة عن تلك الحياة الآخرة التى يحن إليها الإنسان ، والتى توجد إرهاصاتها منذ القِدَم .

أيضاً إن هذه الفكرة القرآنية عن الآخرة يمكن أن نصفها بأنها فكرة توجيهية تهذيبية ، فهى تُرغِّب الإنسان فى الخير ، عن طريق عرض ما أُعِدَّ لفاعله من نعيم ، وتُنفِّر الإنسان من الشر عن طريق ما أُعِدَّ لفاعله فى الآخرة من عقاب .

*

(ب) الأخلاق والتشريع :

يمكن أن نشير بإيجاز إلى ملامح المضمون الأخلاقى فى الرسالة بالإشارة إلى أن القرآن يجعل رسالة الإنسان فى الكون فى جوهرها أخلاقية ، والعِلَّة فى خلقه ذات معنى أخلاقى .

وإذا كانت هذه رسالة الإنسان التى كلَّفه الله بها ، فلا بد أن يعينه تعالى على أدائها ، إذ أن الله لا يُكلِّف الناس إلا ما وسعهم ، وعلى هذا فإننا نجد فى القرآن طريقاً أخلاقياً ، يُزوِّد الإنسان ويعينه على أداء مهمته [1] .

لقد عَنِى القرآن الكريم بالأخلاق عناية بالغة ، فهو كتاب عقيدة وسلوك ومنهج حياة ، يجد فيه الإنسان منهجاً لحياته ، ويزوِّده بمعانى الخير والشر ، وينبهه إلى مواطن الفضيلة ليأتها ومواطن الرذيلة ليبعد عنها .

ولقد وضع القرآن دستوراً للأخلاق وأصولاً عامة لها ، ومعنى هذا أننا نجد فى القرآن الجانب النظرى للأخلاق الذى يهتم بوضع مبادئ للسلوك الإنسانى ، ويوضح ماهية الخير والشر ، ومقاييس الأعمال ، ونعنى بتحديد غاية الإنسان التى ينبغى عليه أن يقصدها ، والكمال الذى ينشده والذى تتحقق به سعادته .

وأيضاً نجد فى القرآن الجانب العملى فى الأخلاق الذى يعنى بالتطبيق العملى

---

(١) انظر كتابنا : دراسات فى الأخلاق الإسلامية .

للأخلاق النظرية ، ومدى تطبيق الجانب النظرى فى الحياة الواقعية للفرد والجماعة والحكم بمطابقة الفعل أو عدم مطابقته للقانون الأخلاقى .

لكن ليس بوسعنا أن نعرض لذلك الجانب الأخلاقى فى القرآن بالتفصيل بل نكتفى بمجرد الإشارة إليه .

❊ ❊

● الإعجاز الأخلاقى :

يوضح القرآن رسالة الإنسان فى الحياة ، فالله تعالى قد خلق الإنسان لعمارة الكون ، وعبادته ، ولكى يكون خليفة لله تعالى على الأرض ، ويتضح ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

وعلى هذا فالإنسان مطالَب بعمارة الكون عن طريق تحصيل ما به المعاش لنفسه ولغيره ، ومطالَب بعبادة الله تعالى وامتثال أوامره ونواهيه ، وأيضاً مطالَب بالاقتداء بالله تعالى - على قدر الطاقة البَشرية - لكى يكون أهلاً لخلافة الله على الأرض .

ويشرح الأصفهانى كيفية الاقتداء بالله أنها تكون باستعمال مكارم الشريعة وهى الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس فى الحكم ، والإحسان والفضل (٤) .

وعلى هذا فرسالة الإنسان فى الكون فى جوهرها أخلاقية ، والعلة فى خلقه ذات معنى أخلاقياً ، وإذا كانت هذه رسالة الإنسان التى كلَّفه الله بها ، فلا بد أن يعينه الله تعالى على أدائها ، إذ أن الله لا يكلِّف العباد إلا ما وسعهم ، وأن يمده بما يمكنه من أداء الرسالة .

ولقد أمدَّ الله الإنسان بما يعينه على أداء رسالته فى الكون ، ففطر القانون الأخلاقى فى النفس الإنسانية ، وجعل إدراكه بالعقل ، يقول تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ

---

(١) هود : ٦١ (٢) الذاريات : ٥٦ (٣) الأعراف : ١٢٩

(٤) الأصفهانى : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٦

وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (١) ، ويقول الإمام محمد عبده فى تفسيره لهذه الآية : بأن الله تعالى قد وهب الإنسان العقل الذى يميز بين الخير والشر (٢) ، فالله بذلك قد زوَّد الإنسان ببصيرة أخلاقية ، وجعله مسئولاً مسئولية أخلاقية فيقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (٣) .

لكن الله لم يقتصر على منح الإنسان مَلَكة العقل والضمير كقوة باطنية يدرك بها الخير والشر ، بل أرسل إليه رسله ليبلغوا عنه أوامره ، وليبينوا للإنسان معانى الخير والشر ، فالعقل الإنسانى وحده ليس كافياً للإلزام ، بل هو فى حاجة إلى الوحى ليكشف له عما استتر عنه وعجز عن إدراكه .

وعلى الرغم من أن القرآن قد ذكر أنه بإمكان العقل إدراك الخير والشر ، إلا أن العقل لا يوجب أمراً تكليفياً ، فالتكليف لا يقع إلا بعد نزول الوحى وإرسال الرسل ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (٤) .

ولقد اتسم الواجب الأخلاقى الذى ذكره القرآن بعدة سمات ، نشير إلى بعض منها بإيجاز فيما يلى :

(أ) **الثبات** : يتسم هذا القانون بالثبات فالقِيَم الروحية والدينية التى قال بها الدين ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، وذلك لثبات المصدر الذى صدرت عنه هذه القِيَم وهو الله تعالى (٥) .

(ب) **الشمول** : يتسم القانون الأخلاقى فى القرآن بطابع الشمول ، فأوامره تتجه إلى البَشرية جميعاً ، وذلك لشمول رسالة النبى للبَشرية جميعاً : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (٦) .

والقاعدة الواحدة تُطبَّق على الجميع على نسق واحد ، فقاعدة العدالة مثلاً يطبقها

---

(١) الشمس : ٧ - ٨ (٢) الإمام محمد عبده : تفسير جزء عم ص ٩٤ - ٩٥
(٣) الشمس : ٩ - ١٠ (٤) الإسراء : ١٥
(٥) الدكتور عبد الحى قابيل : المذاهب الأخلاقية فى الإسلام ص١١٠
(٦) الأعراف : ١٥٨

الفرد على نفسه : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (١) ، وكذلك تطبيق القاعدة على الأقرباء والبعداء وعلى الأغنياء والفقراء : ﴿ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ، إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً ﴾ (٢) ، وسواء أكان خارج الجماعة أم داخلها : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) ، وأيضاً على الأصدقاء والأعداء ، ولا تؤثر العداوة أو الانتقام فى الحكم : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُواْ ، اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٤) ، (٥) .

(جـ) **إمكان العمل** : أى أن القانون يمكن تطبيقه وتحقيقه ، فهو ليس صورياً متزمتاً ، بل يراعى الجانب العملى للتطبيق من حيث إمكانية تطبيقه ، ولقد وردت آيات فى القرآن تشير إلى أن الله لا يكلِّف الإنسان إلا بما هو فى استطاعته مثل قوله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَا وُسْعَهَا ﴾ (٧) .

(د) **اليُسر العملى** : لقد قرر القرآن أن التكليف يقع فى حدود طاقة الإنسان ، ولم يكتف بذلك بل اتجه نحو التيسير على الإنسان ، فنفى كل تكليف لا تقر العادة تحمله ، ونفى كل مشقة يمكن أن تستنفد قوى الإنسان حتى ولو كانت فى حدود طاقتها : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٨) .

ويتجلى هذا التيسير فى مظاهر عديدة ، فالقرآن لم يفرض علينا الغلو فى تطبيق الأعمال التعبدية كقيام الليل كله فى الصلاة ، أو دوام الصوم طول العام ، بل هو ينصحنا دائماً بعدم الالتزام بذلك الغلو .

أيضاً تتجلى مظاهر هذا التيسير فى تعديل الواجب لمقتضيات الظروف

---

(١) البقرة : ٤٤ (٢) النساء : ١٣٥ (٣) آل عمران : ٧٥ - ٧٦
(٤) المائدة : ٨ (٥) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ص ٥٣-٥٤
(٦) الطلاق : ٧ (٧) الأنعام : ١٥٢ (٨) البقرة : ١٨٥

والأحوال ، فقد يُعفى الإنسان من أداء الواجب إذا وُجدت الظروف التى لا تسمح له بالقيام به ، وقد يكون هذا الإعفاء كاملاً ، مثل إعفاء العاجزين من فريضة الجهاد : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (١) ، وقد يكون الإعفاء جزئياً عندما يتعذر القيام بالواجب كاملاً ، مثل قصر الصلاة فى السفر : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاةِ ﴾ (٢) ، وقد يؤجل تنفيذ الواجب إلى حين توجد الظروف التى تسمح بأدائه ، فالمرضى والمسافرون ليسوا ملزمين بالصوم فى وقته المحدد ، وبوسعهم قضاؤه فى مقبل الأيام : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (٣) وقد يستبدل القانون العمل عندما يستحيل القيام به بسبب غياب الأدوات التى تمكن الإنسان من إتمامه بعمل آخر أيسر منه ،وذلك مثل إباحة التيمم رمزاً للطهارة بدلاً من الوضوء عندما يتعذر الحصول على الماء اللازم لإتمام الوضوء : ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَاءً فَتَيَمَّمُواْ ﴾ (٤) ، (٥) .

(هـ) **تدرج الواجبات** : القرآن يحدد حداً أدنى إلزامياً للخير ، ثم يضيف إلى ذلك خيراً مرغوباً فيه ، فهناك درجتان للواجب : خير إلزامى وخير مرغوب فيه ، وذلك فيما عدا الإيمان الذى لا تجزئة فيه ، إذ هو يعنى التصديق الكامل ، والصدق لا درجات فيه .

والقرآن يفسح الطريق فى كل مجال إلى مشاركة أكبر ويحث الإنسان أن لا يقتنع بالمرحلة المشتركة ، فعلى سبيل المثال يضع فضيلة السماح فوق الحق الثابت ، ويلح على الإحسان : ﴿ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَلا تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ (٦) ، وإمهال المدين عندما يكون عاجزاً عن الوفاء واجب ، لكن إعفاءه

---

(١) الفتح : ١٧ (٢) النساء : ١٠١

(٣) البقرة : ١٨٥ (٤) المائدة : ٦

(٥) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ص ٧٦ - ٨٣ ، وأيضاً الدكتور عبد الحى قابيل : المذاهب الأخلاقية فى الإسلام ص ١٣٠ - ١٣٢

(٦) البقرة : ٢٣٧

نهائياً عن دَيْنه بادرة جديرة بالثناء : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ، وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (١) ، والفرائض خير ولكن : ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) ، (٣) .

وحدَّد القرآن المسئولية بمعانيها المختلفة الدينية والأخلاقية وهى مسئولية فردية فكل نفس : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (٤) .

والثواب والعقاب نتيجة لفعل الفرد ، ولا يحمل الفرد وزر غيره ، ولا يمتد إليه وزر ذلك الغير حتى يناله عقابه ، ولو كان من أقرب الأقربين حتى بين الآباء والأبناء : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (٥) فلن ينال الإنسان إلا ما كان نتيجة فعله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَّا سَعَىٰ ﴾ (٦) ، وفى هذا تأكيد للطابع الشخصى للمسئولية الذى لا يمتد إلى الغير (٧) .

ونكتفى بتلك الإشارات الموجزة كمثال على الجانب الأخلاقى فى القرآن وكيف وضع دستوراً أخلاقياً تقصر دونه كل الفلسفات الأخلاقية قديماً وحديثاً ، ومصدر ذلك الدستور وواضعه هو الله الذى خلق الطبيعة البَشرية ، وهو أدرى بما يصلح لها : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٨) ، (٩) .

أما الإعجاز التشريعى . . فهو يتمثل فى الشرائع التى جاء بها القرآن فى الفرائض والعبادات ، فكل عبادة مفروضة يُراد بها صلاح الفرد والجماعة .

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والجماعة واجبة - على الرأى الراجح

---

(١) البقرة : ٢٨٠ (٢) البقرة : ١٥٨

(٣) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ص ٨٤ وما بعدها .

(٤) البقرة : ٢٨٦ (٥) الإسراء : ١٥ (٦) النجم : ٣٩

(٧) الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ص ١٥٠ - ١٥١

(٨) الملك : ١٤

(٩) لمن يريد مزيداً من التفصيلات حول الجانب الأخلاقى فى القرآن فهناك العديد من المؤلفات ، ويقف على قمتها كتاب الدكتور محمد عبد الله دراز « دستور الأخلاق فى القرآن» فهو من أفضل ما كتب عن هذا الموضوع ، وكذلك كتابه « مدخل إلى القرآن » .

- إلا لعذر ، وهى شرط فى الجمعة والعيدين ، والذى يُصلِّى منفرداً يغيب عن شعوره آصرة القربى بينه وبين الجماعة الإسلامية فى أقطار الأرض ، وذلك أن الكل يتجه فى صلاته إلى اتجاه واحد وقِبْلة واحدة ، ويدعو بدعاء واحد وإن تباعدت بينهم الديار .

وحسب المسلم فى تربيته أن يقف بين يدى الله خمس مرات فى اليوم الواحد تمتزج حياته بشرع الله ، ويتمثل الوازع الأعلى ، وبذا يتحقق معنى الصلاة : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ ﴾ (١) .

والزكاة تقتلع من النفس جذور الشح وعبادة المال والحرص على الدنيا وهى مصلحة للجماعة ، وتشعر النفس بتكافل الجماعة شعوراً يخرجها من ضيق الإثرة والانفراد .

والحج سياحة تروض النفس على المشقة ، وتفتح بصيرتها على أسرار الله فى خلقه .

والصيام ضبط للنفس ، وشحذ لعزيمتها ، وتقوية للإرادة ، وحبس للشهوات ، وهو مظهر اجتماعى يعيش فيه المسلمون شهراً كاملاً على نظام واحد فى طعامهم ، كما تعيش الأسرة فى البيت الواحد .

وأيضاً يقوم رباط الأسرة فى الزواج على الود والرحمة والسكن النفسى ، ومراعاة خصائص الرجل وخصائص المرأة ، والوظيفة الملائمة لكل منهما ، وأن أحدهما فى طبيعته ووظيفته ، مكمل لطبيعة ووظيفة الآخر :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٢) .

وفى نظام الحكم ، فقد قرر القرآن قواعد الحكومة الإسلامية فى أصلح قواعدها .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ (٢) الروم : ٢١

فهى حكومة الشورى والمساواة ومنع السيطرة الفردية : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾ (١) ، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٣) .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ ﴾ (٤) .

حكومة تقوم على العدل المطلق الذى لا يتأثر بحب الذات ، أو عاطفة القرابة ، أو العوامل الاجتماعية فى الغنى والفقر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ، إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلا تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ ، وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (٥) ، (٦) .

وهذه الآية تدل على أمور ثلاثة ، أولها : أن العدالة فى ذاتها مطلوبة لأنها أقرب القربات إلى الله .

والثانى : أن الإعراض عن الحكم ظلم ، أو تمكين للظالمين ، فالسكوت عن رد الباطل ظلم ، والمؤمن يجب عليه أن يقوم بالحق ، وأن ينصر الحق ، وأن يؤيد الحق حيثما كان .

والثالث : أنه لا طبقية فى الإسلام بالغنى والفقر ، فلا يكرم الغنى لغناه ، ولا يذل الفقير لفقره ، بل الجميع أمام العدالة سواء (٧) .

كما لا تؤثر فى العدل شهوة الانتقام من الأعداء المبغوضين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) آل عمران : ١٥٩ (٢) الشورى : ٣٨ (٣) الحجرات : ١٠
(٤) آل عمران ٦٤ (٥) النساء : ١٣٥
(٦) منّاع القطّان : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٤٤ وما بعدها .
(٧) الإمام أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن ص ٣٩٢ - ٣٩٤

آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَلا تَعْدِلُواْ ، اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (١) .

ولقد قرر القرآن صيانة الكليات الخمس الضرورية للحياة الإنسانية : النفس - الدين - العرض - المال - العقل ، ورتب عليها العقوبات المنصوصة ، التى تُعرف فى الفقه الإسلامى بالجنايات والحدود .

﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (٣) .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ (٤) .

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ (٥) ، (٦) .

وقرر القرآن العلاقات الدولية فى الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم ومعاهديهم .

فلقد قامت العلاقة بين المسلمين وغيرهم على أساس العدالة ، فلا يُظلمون شيئاً ولا يُمنعون من خير ، والناس جميعاً نسبتهم إلى الله واحدة ، ولقد كانت الدول فى ذلك العصر الذى نزل فيه القرآن وما قبله لا يعترفون بأى حق لغير المستوطنين معهم ، فغيرهم يُعدون برابرة ، ويسرى عليهم الرِّق .

وجاء القرآن فحارب التعصب القَبَلى والجنسى والإقليمى ، وجعل الناس أُمَّة واحدة ، وقامت بذلك العلاقة الدولية على أساس العدل ، قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُواْ ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٧) ،

---

(١) المائدة : ٨ (٢) البقرة : ١٧٩ (٣) النور : ٢

(٤) النور : ٤ (٥) المائدة : ٣٨

(٦) منّاع القطّان : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٤٤- ٢٤٩ ، وهذه الكليات الضرورية هى خلاصة التشريع الذى ينظم علاقة الناس ولقد اكتفينا بالإشارة إلى ذلك بإيجاز .

(٧) البقرة : ١٩٠

وقال تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) ، (٢) .

وخلاصة القول : إن القرآن دستور تشريعى كامل يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال ، وسيظل إعجازه التشريعى قريناً لإعجازه اللُّغوى والعلمى .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحدث فى العالَم أثراً غيَّر وجه التاريخ ، وقدَّم للإنسانية تشريعاً تقصر دونه كل التشريعات الوضعية .

❊

(جـ) خلق الإنسان والكون :

لقد تعرَّضت الآيات القرآنية فى مواضع كثيرة لخلق الإنسان ، وذلك من الناحية الطبيعية والنفسية .

فلقد أشارت الآيات القرآنية إلى تطور خِلْقة الإنسان ، منذ أن كان جنيناً فى بطن أُمِّه إلى أن صار رجلاً وما زوَّده الله به من حواس تعينه على الحياة ، وأن يؤدى مهمته ووظيفته ، وأنه خَلَقه فى أحسن صورة وأتمها .

أيضاً تضمنت الآيات القرآنية كثيراً من الآيات التى وصفت أحوال النفس الإنسانية ، وبيَّنت أسباب انحرافها ومرضها ، وطرق تهذيبها وتربيتها وعلاجها ، وذلك أمر طبيعى فى كتاب أنزله الله تعالى لهداية الإنسان وتوجيهه وتعليمه وتربيته .

وهذه الآيات القرآنية عن النفس يسترشد بها الإنسان لفهم نفسه ومعرفة خصائصها ، وفى توجيهه إلى الطرق السليمة فى تهذيبها وتربيتها .

ومن الممكن أن نسترشد بما ورد فى القرآن الكريم من حقائق عن الإنسان ، وصفاته وأحواله النفسية ، فى تكوين صورة صحيحة عن شخصية الإنسان وعن الدوافع الأساسية التى تحرِّك سلوكه ، وعن العوامل الرئيسية لتوافق شخصيته وتكاملها ، ولتحقيق صحته النفسية .

---

(١) البقرة : ١٩٤ (٢) الإمام أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن ص ٣٩٥ - ٣٩٦

لقد كان حديث القرآن عن خلق الإنسان والنفس الإنسانية ، تابعاً لمعرفة الخالق لخلقه ، فالخالق يكون أدرى وأعلم بطبيعة خلقه وأسرار تكوينه ، لقد قال تعالى مؤكداً ذلك : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) ، (٢) .

أما عن حديث القرآن عن خلق الكون ، فلقد ذكر القرآن فى مواضع كثيرة إشارات إلى خلق الكون وما فيه من أحداث ومظاهر طبيعية ، ورد هذا كله إلى الفعل الإلهى .

لكننا نود أن نشير دون أن نكرر ما سبق أن ذكرناه عن الملاحظات التى ذكرناها عند بداية الحديث عن الإعجاز فى القرآن ، إلى أن القرآن لا يهدف إلى تفسير خلق الكون تفسيراً تفصيلياً ، ولا أن يقرر تفصيلات علمية معينة ، بل هو يشير إلى خلق ذلك الكون الفسيح وما فيه ، ليقف الإنسان على عظمة الكون بالبحث فيه ، وليصل إلى معرفة خالقه وعظمته ، فهو من أجل إقرار العقيدة وتأكيدها ووصول الإنسان إلى أصل تلك العقيدة عن طريق البحث والتأمل .

ونشير فيما يلى إلى بعض إشارات القرآن إلى خلق الكون وما فيه .

فالقرآن يصف لنا دائماً عملية هذا التكوين - الأمر والخلق الأول والبداية لهذا الكون - فهو يحدثنا عن وحدة مادة الكون الأولى فى قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ (٣) .

ثم يحدثنا عن الحالة البدائية لتلك المادة : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ (٤) .

ثم إن الله جلَّت قدرته يحدد لكل كوكب فلكه ومستقره ، مجزئاً بذلك المادة فى

---

(١) الملك : ١٤

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب الدكتور محمد عثمان نجاتى « القرآن وعلم النفس » ولقد أوضح بصورة مفصلة ودقيقة للحقائق النفسية التى وردت فى القرآن الكريم ، والتى تكوِّن صورة واضحة عن الإنسان وسلوكه .

(٣) الأنبياء : ٣٠ (٤) فصلت : ١١

المكان ، ومقرراً جميع القوانين التى ستحكم الظاهرة الطبيعية ، ثم تكوّن الظاهرة الحيوية : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (١) .

وهناك آيات كثيرة تكمل هذه اللوحة النموذجية لصورة التكوين فى القرآن ، وعلى كُلٍّ فإن الفعل الأولى الخالق أمر شفوى ، وهو قوله تعالى للشئ : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٢) .

ويرى المفكر الإسلامى « مالك بن نبى » أن فكرة الخلق من عدم ، تعارض أفكار الذين يعتمدون على فرض « لافوازييه » من أنه لا يوجد شئ من العدم ولا شئ يدخل فى العدم .

ويرى أن فكرة القرآن وهى الخلق من لا شئ لا تتعارض مع المفهوم العلمى ، ويقول : « فلننتظر إلام يؤول حل مشكلة المادة فى التحليل الأخير ؟ - أعنى الجوهر الموجود والمجال الحامل لكل ما هو موجود .

يجيب الطبيعيون : تؤول المادة فى التحليل الأخير إلى نوع من الطاقة ، ولكن: ألا يمكن أن نفسر « كلمة الله » نفسها بأنها نوع من الطاقة ، الطاقة فى أعظم وأتم أشكالها بما أنها خالقة ؟

وأليس لنا الحق فى أن نعتبر المادة فى مجموعها مجرد تشكيل وتأليف لهذه الـ « كن » الخالقة » (٣) .

ودعوة القرآن إلى النظر والتأمل فى الكون أكثر من أن تحصى ، فلقد ضمنها آيات كثيرة وفى مناسبات مختلفة ، وإشارات عديدة تند عن الحصر .

فعلى سبيل المثال : قد جمع الله علوم الفلك والنبات وطبقات الأرض والحيوان وجعل ذلك من بواعث خشيته ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

---

(١) الأنبياء : ٣٠ (٢) يس : ٨٣

(٣) مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية ص ١٨٩ - ١٩١

مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) .

وفى القرآن إشارات علمية سيقت مساق الهداية ، فالتلقيح فى النبات ، ذاتى وخِلْقى ، والذاتى ما اشتملت زهرته على عضوى التذكير والتأنيث ، والخِلْقى : هو ما كان عضو التذكير فيه منفصلاً عن عضو التأنيث كالنخيل فيكون التلقيح بالفعل ، ومن وسائل ذلك الرياح ، وجاء هذا فى قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ (٢) .

والأوكسچين ضرورى لتنفس الإنسان ، ويقل فى طبقات الجو العليا ، فكلما ارتفع الإنسان فى السماء أحس بضيق فى الصدر وصعوبة التنفس ، والله تعالى يقول : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾ (٣) .

ولقد ساد الاعتقاد بأن الذَرَّة هى الجزء الذى لا يقبل التجزئة ، وفى القرآن : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إلا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) . ولا أصغر من الذَرَّة سوى تحطيم الذَرَّة (٥) .

كل تلك الإشارات العلمية ونظائرها فى القرآن جاءت فى سياق الهداية الإلهية ، وللعقل البَشرى أن يبحث فيها ويتدبر ، وذلك حتى يصل عن طريق البحث فى الكون إلى معرفة يقينية بالخالق .

لكن المعلومات العلمية الجزئية والنظريات العلمية المتغيرة ليس من شأن القرآن التعرض لها ، لأن مجاله النفس الإنسانية والحياة الإنسانية ، ووظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الإنسان فى هذا الوجود وارتباطه بربه ، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم

---

(١) فاطر : ٢٧ - ٢٨ (٢) الحجر : ٢٢ (٣) الأنعام : ١٢٥
(٤) يونس : ٦١ (٥) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٣٨ - ٢٤٣

كل طاقاته ومن بينها طاقته العقلية ، التى تقوم هى بعد تنشئتها على استقامة وإطلاق المجال لها لتعمل - بالبحث العلمى ، فى الحدود المتاحة للإنسان ، وبالتجريب والتطبيق ، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال [1] .

فكما سبق القول أن محاولات المتحمسين للقرآن الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه ولا من وظيفته ، هى محاولات خاطئة ، مهما حسنت نية أصحابها ، وأنهم يقصدون أن يُعظِّموا القرآن ، لكن هذا يؤدى إلى الإساءة بالقرآن ، وربطه بمتغيرات العلم ، وهذا بعيد كل البُعد عن طبيعة القرآن ووظيفته .

وبعد . . فهذه إشارات موجزة لبعض ملامح مضمون الرسالة ، والتى تضمنها القرآن ، وهى نسق متكامل وصورة كاملة للكون والحياة والإنسان ، وهى صورة معجزة لا تتسنى للبَشر مهما علا شأنهم ورسخت أقدامهم فى العلم وبلغوا فيه مبلغاً كبيراً أن يأتوا بمثل ذلك النسق المتكامل .

وذلك كله يشير إلى أن مصدره هو الخالق للكون وللإنسان ، وهو أدرى بطبيعة خلقه ، وبالنظام الذى ينبغى أن يسير عليه .

* * *

(١) مناع القطّان : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٤٢ ، ونقل هذه الفقرة عن « ظلال القرآن » للشهيد سيد قطب .